آليات الإقناع في كتاب
"الوساطة بين المتنبي وخصومه"

للقاضي الجرجاني

دكتور

عبير عليوه إبراهيم

أستاذ مساعد قسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة الزرقا نريق

الملخـــص

يعد كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" من الكتب التي احتلت مكانة مهمة في كتب التراث النقدي، وحظيت القضايا التي عرضـــها كتاب الوساطة باهتمام الدارسين وعنايتهم في ظل الاهتمام الواضـــح بمقاييس النقد ومعاييره، إلا أنه يبقى جانب مهم يتصـــل بالأســـاليب التي توسل بها القاضي الجرجاني من أجل الإقنـــاع بآرائـــه ورؤاه النقدية، وهو جانب على الرغم من كونه لا يقل أهميـــة عـــن تلـــك الآراء والرؤى فإنه لم يلق الاهتمام الكافي من الدارسين، ولذا تسعى هذه الدراسة إلى التعرف على أهم الآليات الإقناعيـــة قيـــئ كتـــاب الوساطة، والكشف عن تنوع تلك الآليات فـــي علاقتهـــا بموضـــوع الخطاب وتشكيل بعده الحجاجي، وذلك في إطار مقصد المؤلف مـــن تحقيق الغاية التي من أجلها تم تأليف هذا الكتاب.

الكلمات المفتاحية: التراث النقدي – البلاغة الجديدة – الحجاج – القاضي الجرجاني

دكتور

عبيـــر إبراهـــيم

قسم اللغة العربية، كلية الآداب

جامعة الزقازيق ،جمهورية مصر العربية.

Dr.Abeer.E.E@gmail.com

Abstract

The book “Al-Wasata” is one of the books that occupied an important place in the heritage of Arabic criticism. The issues which the book discusses drew the attention of researches who had growing interest in criticism standards. However, the techniques which “Al-Qadi Al-Jurjani” used to support his views, although important, did not receive enough attention from researchers. This study aims at acknowledging the most important persuasion techniques used in the book “Al-Wasata” and their relation to the subject of discourse.

Keywords: Critic Heritage – New Rhetoric – Argumentation – Al-Qadi Al-Jurjani

Dr.
Abeer Ibrahim
Department of Arabic Language,
Faculty of Arts, Zagazig University,Egypt.
Dr.Abeer.E.E@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعد كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" من الكتب التي احتلت مكانة مهمة في كتب التراث النقدي، وذلك لاتساع الرؤية النقدية للقاضي الجرجاني، وتخطيها الحدود الضيقة لما قد يفهم من العنوان إلى إثارة كثير من القضايا التي تتعلق بالإبداع الشعري والنقد الأدبي، مثل قضايا الطبع والصنعة، والبديع، والسرقات الشعرية، وغيرها مما أضفى على الكتاب سمة التنوع.

حظيت القضايا التي عرضها كتاب الوساطة باهتمام الدارسين وعنايتهم في ظل الاهتمام الواضح بمقاييس النقد ومعاييره، ذلك أن كتاب الوساطة مثله مثل الكتب النقدية التراثية يعد حلقة من مجموعة متشابكة من الحلقات التي تحكمها بنية واسعة من المؤثرات، مما أدى إلى أن تنتج جميعًا خطابًا ثقافيًا متكاملاً تتحاور قضاياه وتتداخل على نحو أثري حركة النقد العربي التراثي، إلا أنه يبقى جانب مهم يتصل بالأساليب التي توسل بها القاضي الجرجاني من أجل الإقناع بآرائه ورؤاه النقدية، وهو جانب على الرغم من كونه لا يقل أهمية عن تلك الآراء والرؤى فإنه لم يلق الاهتمام الكافي من الدارسين، ولذا تسعى هذه الدراسة إلى التعرف على أهم الآليات الإقناعية في كتاب الوساطة، والكشف عن تنوع تلك الآليات في علاقتها بموضوع

الخطاب وتشكيل بعده الحجاجي، وذلك في إطار مقصد المؤلف من تحقيق الغاية التي من أجلها تم تأليف هذا الكتاب.

أفصح القاضي الجرجاني عن غايته من تأليف الكتاب في الجزء الذي وضع له المحققان هذا العنوان: "دفاع المؤلف عن أبي الطيب"، يقول: (ليس بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة، ولا مرادنا أن نبرئه عن مقارفة زلة، وأن غايتنا فيما قصدناه أن نلحقه بأهل طبقته، ولا نقصِّر به عن رتبته، وأن نجعله رجلاً من فحول الشعراء، ونمنعك عن إحباط حسناته بسيئاته، ولا نسوِّغ لك التحامل على تقدمه في الأكثر بتقصيره في الأقل، والغض من عام تبريزه بخاص تعذيره)[1]، ومن أجل تحقيق تلك الغاية اتخذ القاضي الجرجاني من بعض الآليات الحجاجية وسيلة لبناء خطابه وصياغته على نحو أسهم في تدعيم آرائه والكشف عما يتضمنه خطاب الآخر المعارض من أحكام فاسدة وحجج خاطئة.

بناء عليه تسعى هذه الدراسة إلى الاستفادة من توجهات البلاغة الجديدة في اهتمامها بالبعد الحجاجي للخطابات، فقد عرفت (البلاغة الجديدة بأنها نظرية الحجاج التي تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابية، وتسعى إلى إثارة النفوس، وكسب العقول عبر عرض الحجج، كما تهتم البلاغة الجديدة أيضاً

بالشروط التي تسمح للحجاج بأن ينشأ في الخطاب، ثم يتطور، كما تفحص الآثار الناجمة عن ذلك التطور)[٢].

بطبيعة الحال تستعيد البلاغة الجديدة بهذا التوجه الفكر البلاغي القديم، إذ تعمل على إحياء الحجاج عند أرسطو استنادًا إلى قوله: (فالريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن)[٣]، أما الدور الريادي لهذا الإحياء فينسب إلى شايم بيرلمان Chaim Perelman وتيتكا Olbrechts-Tyteca اللذين عادا (إلى الأصل، حيث كانت البلاغة حجاجية، وحيث كانت المزينات الجمالية مجرد روادف لغوية ودعامات تسعى إلى بعث الإقناع والفعل، لا إلى الاستمتاع الجمالي غير العابئ بالتأثير وتعديل الرأي والسلوك)[٤].

مما تجدر الإشارة إليه أن أصحاب البلاغة الجديدة في سعيهم إلى إعادة وظيفة الإقناع تزايد لديهم الاهتمام بالمتلقي وبالوسائل التي تجذبه تجاه الخطاب، فجمعوا في مقاربة الخطابات كل ما يمكن أن يشتمل عليه الخطاب من حجج إقناعية وجماليات تأثيرية، ذلك لأن (التمسك بالبعد الحجاجي في تحديد البلاغة على نحو ما هو سائد في التصورات البلاغية الجديدة لا يفضي بالضرورة إلى حصر عملها في مقاربة الخطابات التداولية دون الخطابات الأدبية)[٥]، وبهذا التوسع الناتج عن الجمع بين البعد الإقناعي والبعد الجمالي صارت البلاغة (تمثل منهجًا للفهم النصي مرجعه التأثير، وعندما نفكر وفق

المفاهيم البلاغية فإننا ننظر مبدئيًا إلى النص من زاوية المستمع/القارئ ونجعله تابعًا لمقصدية الأثر)[٦].

بهذه الرؤية جمعت البلاغة الجديدة بين ما يهدف إليه مؤلف الخطاب وما يحدثه الخطاب من تأثير ناتج عن إتباع استراتيجيات وآليات إقناعية وتعامل مع اللغة له خصوصيته وتميزه، وهو ما يمكن التعبير عنه بفاعلية الخطاب، وذلك من منطلق أن نظرة البلاغة الجديدة للخطاب قد (تمحورت حول الآليات التي تضمن نجاحه وفعاليته، وتناولت استراتيجيات الخطاب الحجاجي من مختلف أبعاده ومراميه وغاياته. تلك الآليات والاستراتيجيات التي تنجح في تقوية انخراط المخاطب، بشكل يطلق لديه الاستعداد للعمل، أو الفعل، أو الإقناع، أو الثقة، والتي يمكن أن تتحقق في الوقت المناسب، أو على الأقل تجعله غير قادر على رفض القول الحجاجي)[٧].

بناء عليه تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة لكتاب الوساطة من خلال الاستعانة بنظريات الفكر البلاغي الحديث، سعيًا إلى تحقيق التفاعل الآني مع ما يطرحه الكتاب من آليات إقناعية لها مجالها التاريخي وعالمها الثقافي، وبذلك يمكن مد جسور التواصل بين الماضي والحاضر، وإقامة حوار ينشغل بالبحث في تطوير وبناء ثقافة عربية تمزج التاريخي بالمعاصر والتراثي بالوافد، وإذ تقترب

آليات الإقناع في كتاب الوساطة من الفكر البلاغي الجديد في سعيه نحو تحليل الخطاب الحجاجي والاهتمام باستراتيجياته التي تحقق فعاليته، فإنه يمكن تحديد أهم الآليات التي استخدمها القاضي الجرجاني من أجل الإقناع بآرائه النقدية فيما يلي:

١- الاحتجاج بالقيم الإيجابية.

٢- الاحتجاج بالقياس العقلي.

٣- البنية الاستدلالية.

٤- الطابع الحواري.

٥- حجة الشاهد القرآني.

٦- التفاعل النصي.

٧- تمثيل الذات والآخر.

٨- الأسلوب.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل،،

١- الاحتجاج بالقيم الإيجابية:

اتخذ القاضي الجرجاني من مجموعة القيم المتعارف عليها في المجتمع العربي خلفية حجاجية يؤسس من خلالها آراءه ومواقفه، ويسعى بواسطتها إلى التأثير في المتلقي، وهذا المنهج (يقتضي أن يبني المتكلم نصه على ما يسلم به المتلقي من آراء وأفكار

ومعتقدات، وما يؤمن به من قيم، أي ما اصطلح عليه بيرلمان بالاتفاق المسبق)[٨].

تتضح تلك القيم بداية من العنوان الذي اختاره المؤلف لخطابه في محاولة منه لإظهار موقف الحياد تجاه دعاوى الرافضين لشعر المتنبي، إذ يختلف معنى الوساطة عن معان أخرى مثل الدفاع أو الانتصار أو الاعتذار أو الاحتجاج، وذلك على الرغم من أن مضمون الخطاب لا يحيد عن ذلك كله، ويجلّي الجزء الأخير من الكتاب وعنوانه "دفاع المؤلف عن أبي الطيب" وعي القاضي الجرجاني بالغرض الحجاجي لخطابه، وبالوسائل التي تتوالى في كتابه ليصل من خلالها في نهايته إلى إقناع القارئ برأيه الذي يحاجج عنه منذ البداية.

من القيم الإيجابية التي ذكرها القاضي الجرجاني في المقدمة قيمة "التنافس" الذي هو نتاج التفاضل بين البشر، وهو قيمة محمودة تقوى العزائم وتشحذ الهمم، فأول عبارة في الكتاب هي: (التفاضل – أطال الله بقاءك – داعية التنافس، والتنافس سبب التحاسد) الوساطة: ص١، لكنه على الرغم من كون الحسد من الصفات السلبية فإنه ينطوي ضمناً على إيجابيات، قال القاضي الجرجاني: (كم من فضيلة لو لم تستثرها المحاسد لم تبرح في الصدور كامنة، ومنقبة لو لم تزعجها المنافسة لبقيت على حالها ساكنة، لكنها برزت فتناولتها

ألسن الحسّد تجلوها وهي تظن أنها تمحوها) الوساطة: ص١، فالتحاسد الذي لا يوسم به إلا أهل النقص ومن قصرت هممهم عن إزالة نقائصهم لامتزاجها بخلقتهم هو الذي يدفع إلى حسد أصحاب الفضائل، فيؤدي ذلك عن غير قصد، أو توقع إلى إبراز الفضائل وإظهارها وإعلاء شأنها.

استثمر القاضي الجرجاني هذا المعنى استثماراً مثيراً للتأمل ودالاً على مهارته في تحقيق مقصد الخطاب، حيث جعل للعلماء الفضل في إظهار الفضائل، ومن ثم فقد أعطى لذاته مشروعية الدفاع عن شعر المتنبي انطلاقًا من كونه عالمًا، فالعلم الذي هو قيمة إيجابية في حد ذاته، يدفع من ينتسبون إليه من العلماء أو الأدباء إلى الحفاظ على ما بينهم من صلة لا تقل أهميتها عن صلة الأرحام، يقول: (ولم تزل العلوم – أيدك الله – لأهلها أنساباً تتناصر بها، والآداب لأبنائها أرحامًا تتواصل عليها) الوساطة: ص٢، وبناء عليه فالحسد لا يُظهر الفضائل الكامنة فحسب وإنما يُقيض لها من العلماء من ينتصر لها ويدافع عنها، إن الحاسد باستثارته الفضائل الكامنة إنما يستثير في الوقت نفسه همم العلماء المنصفين ليبادروا إلى وصل رحم العلم، وما صنيع القاضي الجرجاني في هذا الكتاب إلا تطبيقًا لهذا المبدأ حيث الانتصار لشعر المتنبي وإنصافه إنصافاً تقتضيه حرمة العلم ومنزلته، فهو بحديثه عن قيمة العلم بعد

استشهاده بالآية الكريمة: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم"[٩]. إنما يعمد إلى الإفصاح عن الدور الذي يقوم به العالم المتصف بإتباع الحق والعدل في الدفاع عمن يتشاركون معه في العلوم والآداب.

تستند قيمة العلم إلى قيمة الحق وإلى قيمة العدل، فكلتاهما قيمتان بارزتان وحاضرتان في واقع المخاطبين، وبهما يُعطى للعلم قدره، ويُعطى من يتمسك بهما البرهان المسلّم والدليل القاطع، يقول القاضي الجرجاني: (وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق، أو تميل في نصرها عن القصد، فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج في بابه إلى الإسراف، بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك، وتقفُ على رسمه كيف وقفك، فتنتصف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدًا لك إذا أنكرت.... ومتى عرفت بذلك صار قولك برهانًا مسلّمًا، ورأيك دليلاً قاطعًا). الوساطة: ص٢، ٣

من الواضح إذن أن هناك استراتيجية إقناعية لتبني القاضي الجرجاني تلك القيم الإيجابية وهي تحويل القيم النظرية إلى سلوك وأفعال في الواقع، أي أن تكتسب الكلمة قوة الفعل، وتغدو حجة ودليلاً على صحة الآراء والمواقف، وبذلك لا تنفصل منظومة القيم عن مقصد الخطاب الذي يستند الآن إلى قاعدة ثابتة هي منظومة متنوعة من القيم التي

تحظى بالقبول والإقناع، فالقاضي الجرجاني يجعل من القيم المسلّم بها من المخاطِب والمخاطَب مهادًا مشتركًا يسهم في قبول الآراء، ولذا ليس من المستغرب أن يدافع القاضي الجرجاني عن نفسه وبالتالي عن أحكامه استنادًا إلى ما يتصف هو به من صفات الصدق والإنصاف والعدل، فهو يقول لمخاطبه الذي قد يتوهم فيه الظلم: (ولعلك إذا رأيت هذا الجد في السعي، والعنف في القول تقول: إنما وقفت موقف الحاكم المسدد، وقد صرت خصمًا مجادلاً، وشرعت شروع القاضي المتوسط، ثم أراك حربًا منازعًا، فإن خطر ذلك ببالك، وحدثتك به نفسك فأشعرها الثقة بصدقي، وقرر عندها إنصافي وعدلي) الوساطة: ص١٧٨، ويقول عند حديثه عن تكلف أبي تمام وتفاوت شعره: (ولست أقول هذا غضًا من أبى تمام، ولا تهجينًا لشعره، ولا عصبية عليه لغيره، فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه، وأنتحل موالاته وتعظيمه، وأراه قبلة أصحاب المعاني، وقدوة أهل البديع! لكن ما سمعتني أشترطه في صدر هذه الرسالة أنه يحظر إلا إتباع الحق وتحرِّي العدل والحكم به لي أو عليّ) الوساطة: ص١٩، ٢٠. وهكذا أصبحت القيم الإيجابية في خطاب الوساطة آلية إقناعية

يكون الرأي بموجبها دليلاً مؤكداً وقاطعًا فيحظى بالقبول والتصديق ويدفع الخصم إلى الشك والارتياب في أحكامه.

٢ - الاحتجاج بالقياس العقلي:

يستمد خطاب الوساطة قوته الإقناعية من آلية القياس العقلي الذي ينتقل بالقارئ من مقدمات منطقية مسلّم بها إلى نتائج تدعم صحة الدعوى التي يتبناها مؤلف الخطاب، فمن القياس ما يستند إلى فكرة الطبائع التي فطر الله عليها البشر، يقول القاضي الجرجاني: (وقد جعل الله لكل شيء قدرا، وأقام بين كل حديث فصلا، وليس يطالب البشر بما ليس في طبع البشر، ولا يلتمس عند الآدمي إلا ما كان في طبيعة ولد آدم، وإذا كانت الخلقة مبنية على السهو وممزوجة بالنسيان، فاستسقاط من عزّ حاله حيْف، والتحامل على من وجّه إليه ظلم) الوساطة: ص٤، هذا القياس يستمد قوته من خلفيته الدينية التي تحظى بالقبول والإجماع مما يسهم في إذعان المخاطب له، والنتيجة المضمرة لهذه المقدمة هي ضرورة الحكم على شعر المتنبي في إطار ما تعلمه النفس عن طبائع البشر، ولأن القاضي الجرجاني لا يتحدث من منطلق نظري مجرد وإنما من خلال مُعطى يمكن الاستشهاد به، فإنه يكثر من الاستشهاد بالأبيات الشعرية - الجاهلية والإسلامية - التي يمكن الانطلاق منها

والتأسيس عليها بوصفها كاشفة عن جانب من التراث الشعري يعزز القياس السابق، ويعزز بالتالي غاية الخطاب في دفاعه عن المتنبي بوصفه شاعرًا يخطئ ويصيب مثله مثل من سبقه من الشعراء، يقول القاضي الجرجاني عند حديثه عن دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين: (فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه، إما في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه أو إعرابه؟). الوساطة: ص٤

ينطوي هذا القول على حجة القياس العقلي، فالمقدمة تفيد أن دواوين الشعراء الذين حظوا بالاستحسان – لسبقهم وتقدمهم – لا تخلو من أخطاء، وهي مقدمة صحيحة أثبتت صحتها الشواهد الشعرية المتعددة التي تم ذكرها في هذا الموضوع، وبناء عليه فإن النتيجة المترتبة على تلك المقدمة هي أن شعر الشعراء المحدثين لا يخلو أيضاً من أخطاء، ومن هذا الشعر شعر المتنبي، لذا فإن أهم ما ينبغي على من يحكم على شعر المتنبي هو أن يلتزم الإنصاف، وألا يتجاهل ما جبلت عليه طبائع البشر من سهو ونسيان، صحيح أن القاضي الجرجاني لم يذكر شعر المتنبي في هذا السياق، لكنه يضع هذه القاعدة المستندة إلى أساس عقلي ضمن قضية الخطاب الأساسية لتصبح مسوغًا مهمًا من مسوغات الدفاع عن شعر المتنبي فيما سوف يقدمه الخطاب من موضوعات، ولهذا فإنه لتحقيق الغاية من

إلحاق المتنبي بأهل طبقته من الشعراء، كثيراً ما تصدى خطاب الوساطة لحجج الخصوم بعرض المقدمات التي بُنيت آراؤهم وأحكامهم عليها، والكشف عما يتخللها من أخطاء، مما يستتبع فساد نتائجها، وكذلك استند الخطاب إلى الميراث الأدبي والواقع الثقافي من أجل إبطال آراء الخصوم، ومن أمثلة استخدام خطاب الوساطة لآلية القياس العقلي ما يلي:

أ – المقدمة: تفاوت شعر أبي نواس؛ (لا ترى لقديم ولا محدث شعرًا أعم اختلالا، وأقبح تفاوتا، وأبين اضطرابا، وأكثر سفسفة، وأشد سقوطاً من شعره هذا). الوساطة: ص٥٥

ب – النتيجة ١: أن ذلك لم يقلل شأن شعره؛ (فهل طمست معايبه محاسنه؟ وهل نقص رديُّة من قدر جيده). الوساطة: ص٥٥

جـ – النتيجة ٢: أن يتم الحكم على شعر المتنبي بنفس المعيار.

أ – المقدمة: (ليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر). الوساطة: ص٤١٧

ب – النتيجة: (وأنت لا تجد في شعر أبي الطيب بيتًا يزيد معناه على هذا الغموض، أو تتعقد ألفاظه تعقد أبيات الفرزدق). الوساطة: ص٤١٩

أ – المقدمة: (فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين، وموجود كثير في الأوائل، والناس فيه مختلفون، فمستحسن قابل، ومستقبح راد). الوساطة: ص٤٢٠

ب – النتيجة: (إنه عيب مشترك، وذنب مقتسم، فإن احتمل فللكل، وإن ردّ فعلى الجميع، وإنما حظ أبي الطيب فيه حظ واحد من عرض الشعراء، وموقعه منه موقع رجل من المحدثين). الوساطة: ص٤٢٨

أ – المقدمة: (فهؤلاء قد جعلوا الدهر شخصًا متكامل الأعضاء، تام الجوارح). الوساطة: ص٤٣٠

ب – النتيجة: (فكيف أنكرت على أبي الطيب أن جعل له فؤاداً). الوساطة: ص٤٣٠

أ – المقدمة: (للعرب في وصف السلاح والخيل مذهبان...). الوساطة: ص٤٣٨

ب – النتيجة: خطأ من زعم أن المتنبي (أخطأ في وصف درع عدوه بالحصانة، وأسنة أصحابه بالكلال). الوساطة: ص٤٣٤

أ – المقدمة: (إن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة، وأخرى بالحال والطريقة). الوساطة: ص٤٧١

ب – النتيجة: خطأ من زعم أن الوصف عند المتنبي أتى على غير المعنى المراد، مثل قوله: (بليتُ بِلَى الأطلالِ إن لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع في التُّربِ خاتَمَهُ

قالوا: أراد التناهي في إطالة الوقوف فبالغ في تقصيره). الوساطة: ص٤٧١

٣ – البنية الاستدلالية:

يعرض كتاب الوساطة لبعض القضايا التي تبدو في ظاهرها أنها متنوعة، إلا أنها في حقيقة الأمر تترابط وتتحد وفقًا لمنظومة من العلاقات التاريخية والفنية، على نحو أدى إلى إنتاج خطاب يحفل بالثابت والمتغير، ويجدل التاريخي بالفني، دون أن يحيد في ذلك كله عن الغاية التي يسعى الخطاب إلى تحقيقها، مما وسم بنية الخطاب بطابعها الاستدلالي، وخاصية هذه البنية الاستدلالية (أن صاحبها لا يباشرها حتى يكون قد علم عن الموضوع الذي يريد أن يكتب فيه كل ما يدور عليه من القضايا، فيتبين له إذ ذاك ما ينبغي أن يقدمه من أصول وما ينبغي أن يؤخره من فروع، فيدخل في بناء كتابه كما يبنى المهندس عمارته حتى كأن عمله البنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضاً؛ ولهذا لا تنفع أبداً قراءة مثل هذا العمل بتصفحه في أواسطه أو أطرافه أو بالقفز على فقراته، بل ينبغي قراءته من أوله إلى آخره والتدرج فيها خطوة خطوة، حتى تهتدي إلى طريقة توالد

بعضه من بعض، وتقف على الأدلة التي يبرهن بها علـــى قضـــاياه انطلاقاً من مقدماته)[١٠].

يتضح وعي القاضي الجرجاني بهذه الكيفية في بنـــاء الخطـــاب عندما أفصح في المقدمة عن الدوافع التي أدت إلى تأليف الكتـــاب، مما يتبين معه أن موقفاً عدائياً استدعى المواجهة والرد مـــن أجـــل إظهار محاسن شعر المتنبي، تلك المحاسن التي أرادت ألسن الحسّاد طمسها، وفي إطار هذا الهدف المحدد المعلن عنه في مقدمة الكتاب يمكن النظر إلى ترتيب الموضوعات بوصفه مؤشـــرًا بنيويًـــا لمـــا ينطوي عليه الخطاب من حلقات متشـــابكة ومتصـــلة، تســـهم فـــي مجموعها في تقوية الرأي وإحداث التأثير، وهذا ممـــا يـــدعو إلـــى إيضاح الرأي القائل إنه (ليس كتاب الوساطة مختصًا بشعر المتنبـــي كما يفهم من عنوانه، بل إنه عرض للأصول الأدبية التي عرفت في عصره، وحلل أشعار القدماء والمحدثين، وأورد كثيرا من محاسنهم وعيوبهم، وأبان ما شاع فيها من تعقيد وغمـــوض وأخـــذ وســـرقة واستعارة حسنة أو رديئة، ثم عرض للبيئة وأثرهـــا فـــي الشـــعر، والبداوة وما تحدثه من جفوة في الطباع، والحضارة وما ينشأ عنهـــا من رقة وسهولة، ثم عرض لخصوم المتنبـــي وأنصـــاره ومعانيـــه المأخوذة أو المخترعة) الوساطة: ص ج، د، صحيح أن تلـــك هـــي الموضوعات التي ضمّنها القاضي الجرجاني خطابه، لكنه باختيـــاره

تلك القضايا وترتيبها بهذا الترتيب المخصوص تتضح قدرته وكفاءته على استثمار الموضوعات وتطويعها لتمثل بنية كلية مترابطة تتخذ من التدرج في عرض الرأي وسيلة إقناعية تستهدف التأثير في المتلقي، فكل الأحكام التي استنتجها القاضي الجرجاني في سياق عرض القضايا المتعددة كالبداوة والحضارة والتفاوت بين أشعار القدامى والمحدثين والسرقات الشعرية وغيرها لا تنفصل بأي شكل من الأشكال عن موضوع خطاب الوساطة، إنه الموضوع الذي يمكن التعرف عليه من خلال تكرار القاضي الجرجاني الواضح لفكرة الاحتجاج، فهو يعرض جدال فئتين مختلفتين في الرأي لإثبات صحة دعوى كل منهما، ويقف هو وسيطًا بينهما، وحكمًا يحسم نزاعهما، مستخدماً في ذلك حججه التي يدعم بها ويرجح رأي أحد الفريقين على الآخر، ولتحقيق أهدافه الحجاجية عمد القاضي الجرجاني إلى ترتيب مخصوص ونهج محدد يعضد بهما قصده التداولي (والنص كما تتصوره النظرية البلاغية أيضاً هو جملة من الملفوظات المترابطة حجاجيًا في مقام تواصلي محدد)[١١].

مما يعزز فكرة المقصد التداولي، وأن ترتيب الموضوعات في كتاب الوساطة إنما يتحدد حسب خطة محكمة تنشئ بنيته الاستدلالية هو ما أورده القاضي الجرجاني من أقوال في نهايات خطابه

وخصوصًا في الجزء الذي عنونه المحققان بعنوان "دفاع المؤلف عن أبي الطيب" حيث يقول:

(وقد قدمنا لك في صدر هذه الرسالة من شعر أبي نواس وأبي تمام وغيرهما ما مّهدنا به الطريق إلى هذا القول) الوساطة: ص٤١٥، أي أن ما تقدم الحديث عنه لم يكن إلا تمهيدًا يدعم آراء المؤلف وموقفه ووجهة نظره، ويسهم في استمالة المخاطب نحو ما سوف يقدم إليه من أحكام، فيكون بذلك بمثابة الدليل والبرهان على صحة الرأي، وحجة قاطعة لا تقبل الشك، وكذلك فإنه في الجزء الذي عنوانه "من مآخذ العلماء على أبي الطيب ودفاع المؤلف عنه" يقول القاضي الجرجاني: (قد قلت في هذه الأبواب بقدر ما احتملت الرسالة قولاً مجملاً يسهّل لك السبيل، ويوقفك على جهة الاحتجاج) الوساطة: ص٤٣٤، تلك الأبواب هي الموضوعات الصغرى أو الموضوعات الفرعية التي تشكل خطاب الوساطة بوصفها براهين عقلية تحقق غاية الخطاب، وقد أسهمت مجتمعة في تركيب البنية الاستدلالية للنص، وفي تلقي الخطاب بوصفه مجموعة من النصوص المتتالية التي يسلم أحدها إلى الآخر، مما يعني أن حذف أحد الأجزاء سوف يؤدي إلى خلخلة البنية التركيبية، وإلى صعوبة في تأسيس البعد الإقناعي للخطاب.

يعزز خطاب الوساطة حجاجيته إذن ببنيته الاستدلالية، فمن خلال ترتيب الموضوعات ومن خلال ابتداءات تلك الموضوعات يمكن رصد تشكلات هذه البنية، فلكل موضوع مقدمة تفضي إلى نتيجة، وهكذا إلى أن تتولد مجموعة من النتائج التي سوف يتم استثمارها فيما بعد – في الجزء الأخير من الكتاب – لتحقيق غرض الخطاب، فمن المثير للتأمل أن القاضي الجرجاني قد أتاح لعرض دفاعه عن المتنبي مساحة واسعة من حرية الحركة بعرض الموضوعات الفرعية وفق رؤيته النقدية مما هو كفيل بجعل خطابه فاعلاً ومؤثراً وقادراً على الاستحواذ على عقل المخاطب.

وضع المحققان للموضوعات الصغرى عناوين تم اقتباسها من نصوص المؤلف، وقد أشارا إلى ذلك عند الحديث عن مخطوطة الكتاب بقولهما: (ثم وضحنا معالم الكتاب بعنوانات تقرب مرماه، وتوضح غايته، ومعظمها اقتباس من نص المؤلف، إذ كان الكتاب كله رسالة واحدة، ومقالة يمضي فيها المؤلف من أول الشوط إلى نهايته) الوساطة: ص خ، وهكذا فإن انسجام البنية الخطابية من حيث الشكل ومن حيث الموضوع مما يعزز تماسك الخطاب، أي أن ترتيب موضوعات الكتاب ليس فعلاً آليًا غير مقصود، وإنما هو فعل شديد الاتصال بالغرض الذي يتجاوز مجرد

جمع موضوعات أدبية في كتاب، إلى تشييد خطاب متلاحم الأجزاء، لا ينفصل بطبيعة الحال عن نزوع صاحبه نحو الدفاع عن شعر المتنبي في إطار الاتصال بالخطاب الثقافي العام اتصالاً لا يحده قيد زمن إنتاج الخطاب، ولهذا جاء كتاب الوساطة متضمناً التعدد والاختلاف عبر العصور والأزمان، فمعنى تلقي النص بوصفه خطاباً هو النظر (إلى النص على أساس أنه يعقد الصلات بين مستخدمي اللغة، لا الصلات المتمثلة في عملية الكلام فحسب، بل الصلات الخاصة بالوعي والأيديولوجيا والوظيفة والطبقة، وعندئذ يكف النص عن أن يكون شيئاً ملموسًا ويصبح نشاطاً فاعلا أو سلسلة من التغيرات)[١٢]، وبناء عليه يمكن حصر بنية متن الخطاب التي تضم مجموعة متشابكة من القضايا النقدية في موضوعين رئيسين غير منفصلين عن الهدف العام الذي يبسط ظلاله على مجمل النصوص، وهما: طبيعة الشعر وأوجه التفاعل النصي، وسوف تتناول الدراسة هذين الموضوعين في إطار كونهما من الأسس الممهدة لخاتمة الكتاب، وذلك من أجل التعرف على كيفيات توظيف ما ورد فيهما عند الحديث عن شعر المتنبي.

أولاً: طبيعة الشعر:

يبدو القاضي الجرجاني مدركاً للأسس العامة التي ينبني عليها الشعر في كل زمان ومكان، وعلى وعي بأن هذه الأسس وإن كانت هي مرد الاتفاق والتقارب في كيفيات إنشاء القصيدة العربية، إلا أن ذلك التوافق لا ينفي الاختلاف سواء في شعر الشاعر جملة أو في القصيدة الواحدة، واستناداً إلى هذا الإدراك وذلك الوعي فإن هذه القواعد الفنية التي يتم تأسيسها الآن سوف يتم توظيفها لاحقًا لتحقيق مقاصد الخطاب في الجزء الختامي المخصص للدفاع عن شعر المتنبي، فقد أشار القاضي الجرجاني إلى ذلك عند حديثه عن اختلاف شعر أبي تمام في القصيدة الواحدة بقوله: (وهذه الطريقة أحد ما نُعِي على أبي الطيب وسنقول فيها وفي غيرها إذا استوفينا هذه المقدمة) الوساطة: ص٢٣، وقال كذلك عند حديثه عن البديع: (وإنما قدمنا هذا النبذ توطئة لما نذكره على أثره، وتدريجاً إلى ما بعده ليكون كالشاهد المقبول قوله وبمنزلة المسلّم أمره) الوساطة: ص٤٨، كذلك فإنه عندما حدد أسس علم الشعر في (الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له) الوساطة:١٥، فإنه يقرر أن قدر الشاعر وإحسانه إنما يكون بقدر تحصيله لتلك الخصال (وبقدر نصيبه منهما تكون مرتبته من الإحسان) الوساطة: ص١٥، وهو هنا يهدف إلى إرساء قاعدة مهمة سوف يتم استثمارها لاحقاً، وهي أن

التميز الفردي يجتمع في إطار بنية كبرى يصبح معها العمل الإبداعي جزءاً مندمجًا في هذه البنية، مرتبطاً بقواعدها وخصالها وروحها المائزة، ومن ثم تميز القدماء بخصال تنتمي إلى بنية كبرى وُسمت (بمتانة الكلام وجزالة المنطق وفخامة الشعر) الوساطة: ص١٦، وعلى النقيض يختص المحدثون بالسهل من الكلام لأنهم وفقاً لزمنهم قد عمدوا إلى (ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها). الوساطة: ص١٨

هذه الآراء تؤكد رغبة القاضي الجرجاني في تبني مفهوم محدد لبنية النص الشعري، في إطار البنية الثقافية الأرحب، تلك البنية التي تتلاقى في ظلالها النصوص، ويتقارب الشعراء، وتتكامل أسس التفسير والتلقي، إنها البنية التي تمنح كل عصر من العصور خطابه المنسجم، وكما قال الباقلاني: (وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر، وتتدانى رسائل كتاب دهر، حتى تشتبه اشتباهًا شديدًا وتتماثل تماثلاً قريبًا)[١٤]، وبهذه الرؤية النقدية – سواء عند القاضي الجرجاني أو عند الباقلاني – يرتكز النص الشعري على سياقه التاريخي الذي يفضي إلى مثل هذا التماثل الشعري والتقارب الأسلوبي اللذين يتميز بهما كل عصر عن غيره من العصور، وهذا الفهم لا يختلف عن النقد الحديث في طرحه لفكرة التميز الأسلوبي للنصوص تبعًا لزمن محدد، ووفقًا لتودوروف فإنه في (كل عصر

يصبح عدد معين من الأنماط الأدبية معروفًا معرفة جيدة لدى الجمهور، بحيث يعتمدها مفاتيح لتأويل الأعمال)[١٤].

يستمد القاضي الجرجاني من هذا الطرح بعض الأفكار التي سوف تُزكّي آراءه في شعر المتنبي، فيذكّر المخاطب بأنه على الرغم من أن لكل عصر خطابه المفرد الذي ينبني وفق ثقافته، فإنه لا يخلو في الوقت نفسه من صفات وملامح وخصال مشتركة مع غيره من العصور، وقد استشهد على ذلك بشعر شعراء جمعهم الجريان مع الطبع والبعد عن التكلف فكان لأشعارهم عظم التأثير في المتلقي، وذلك على الرغم من تباعد أزمانهم واختلاف عصورهم، وأمثلة ذلك كما قال القاضي الجرجاني: (إذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب، وعظم غنائه في تحسين الشعر فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء، والبحتري في المتأخرين، وتتبع نسيب متيّمي العرب ومتغزلي أهل الحجاز). الوساطة: ص٢٤، ٢٥

لا تُرسخ الإشادة بالطبع وبدوره في تحسين الشعر قيمة بلاغية فحسب، وإنما هي أيضاً تعد مقدمة حجاجية تهدف إلى تمرير رسالة إلى المتلقي تحثه على الاقتناع بأثر الطبع في النفوس، وذلك لأن القاضي الجرجاني سوف يزاوج بين الطبع والصنعة في تشكيل شعر المتنبي، يقول: (وأنا أرى لك إذا كنت متوخيًا للعدل، مؤثراً

للإنصاف أن تقسم شعره؛ فتجعله في الصدر الأول تابعًا لأبي تمام، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم) الوساطة: ص٥٠، أي أن الصنعة هي التي شكلت شعر المتنبي في بداياته فشابه شعره شعر أبي تمام، ثم جمع في نهايات قصائده بين الطبع والصنعة فشابه شعره شعر مسلم بن الوليد، وتلك المزاوجة سوف يعرب القاضي الجرجاني عن استحسانه لها بقوله معقبًا على قصيدة المتنبي التي وصف فيها الحمّى: (وهذه القصيدة كلها مختارة، لا يعلم لأحد في معناها مثلها، والأبيات التي وصف فيها الحمى أفراد، قد اخترع أكثر معانيها، وسهل في ألفاظها، فجاءت مطبوعة مصنوعة، وهذا القسم من الشعر هو المطمِع المؤيس). الوساطة: ص١٢١

هذا الوصف للقصيدة بأنها "مطبوعة مصنوعة" في آن واحد يعكس رغبة القاضي الجرجاني في إضفاء شيء من الغموض حول شعر المتنبي بما يصعب معه التوصل لأسراره البلاغية، ومن ثم فإن وصف هذا القسم من الشعر بأنه "المطمع المؤيس" هو وصف حجاجي يهدف إلى المبالغة في الإعلاء من شأن هذا النمط من الشعر، ذلك أن (المقصد الحجاجي من إطلاق الصفة ليس وضع الموصوف في خانة ما مع سائر العناصر التي تشاركه تلك الصفة، وليس الكشف عن موقفنا منه فحسب، وإنما المقصد الحجاجي من إطلاق الصفة تحديد نوع الموقف الذي ينبغي أن نحكم به عليه)[١٥]،

وهنا يمكن القول إن القضايا البلاغية تشكل جزءاً مهماً من استراتيجية الإقناع بتفرد شعر المتنبي، ولهذا فإنه عندما يتحدث القاضي الجرجاني في المقدمة عن الاستهلال والتخلص والخاتمة بوصفها من العناصر الأساسية في القصيدة على مستوى التشكيل والتلقي فإنه يتخذ منها قيمًا بلاغية يستند إليها لكي يبرر استحسانه لشعر المتنبي، يقول: (فأما أبو تمام والمتنبي فقد ذهبا في التخلص كل مذهب واهتما به كل اهتمام، واتفق للمتنبي فيه خاصة ما بلغ المراد وأحسن وزاد) الوساطة: ص٤٨، وقد عرض القاضي الجرجاني هذا الرأي دون أن يؤكده بشواهد شعرية من ديوان المتنبي، إذ أرجأ إيراد الشواهد الشعرية إلى الجزء الذي عنوانه: "شعر المتنبي"، حيث ذكر من الأبيات ما استشهد به على "حسن التخلص والخروج" و"حسن ابتداءاته" الوساطة: ص١٥٢: ص١٥٩، ولعل فيما قاله القاضي الجرجاني في مقدمة هذا الجزء عن شعر المتنبي ما يؤكد وعيه بفكرة التدرج في عرض الموضوعات من أجل التأثير في المتلقي، يقول:

(وأكتفي بما قدمته من هفوات أبي تمام وإن كان ما أغفلته أضعاف ما أثبته؛ إذ البغية فيه الاعتذار لأبي الطيب لا النعي على أبي تمام، وإنما خصصت أبا نواس وأبا تمام لأجمع لك بين سيدي

المطبوعين، وإمامي أهل الصنعة، وأريك أن فضلهما لم يحمهما من زلل). الوساطة: ص٨٢

ينطلق القاضي الجرجاني في استراتيجية خطابه الإقناعية من إثبات فكرة التفاوت عند شعراء كبار ليستند إليها في تبرير ما في شعر المتنبي من تفاوت، فهو يعرض الموضوعات وفق ما يرى أنه أسلوب كفيل بتحقيق الوظيفة التأثيرية للخطاب، كما أن الاهتمام بذكر الأبيات التي تؤكد هذا التفاوت مما يعد دليلاً مقنعًا ونهجًا حجاجيًا يستثمره القاضي الجرجاني في تشييد بنية خطابه الاستدلالية من أجل توجيه المخاطب نحو التسليم والاقتناع بما يلقى إليه من آراء وأحكام تخص شعر المتنبي.

من المثير للتأمل أن القاضي الجرجاني قد أغنى خطابه بالكثير من الشواهد الشعرية الداعمة لآراء الخصوم، غير منكر عليهم آراءهم تجاه ما في تلك الشواهد من تعقيد أو تكلف، لأنه بصنيعه هذا يكشف عن موقفه الحيادي، ويسهم في استمالة المخاطب نحو الاقتناع بآرائه وخصوصًا قوله: (وليس من شرائط النصفة أن تنعي على أبي الطيب بيتا شذ، وكلمة ندرت، وقصيدة لم يسعده فيها طبعه، ولفظة قصرت عنها عنايته، وتنسى محاسنه وقد ملأت الأسماع، وروائعه وقد بهرت) الوساطة: ص١٠٠، ١٠١، لهذا فإنه كما أغنى القاضي الجرجاني خطابه بشواهد شعرية اتخذها الخصوم

دليلاً على رداءة شعر المتنبي، فقد ذكر بعد ذلك الكثير من الشواهد الشعرية التي تدعم موقفه وتؤكد وجهة نظره وتثبت تحامل الداعين إلى التقليل من القيمة الفنية لشعر المتنبي، أي أنه قد اتخذ تلك الشواهد آلية إقناعية يبدو الرأي النقدي بموجبها مؤيدًا بالأدلة والبراهين، فيحظى بناء على ذلك بالثقة والتصديق والقبول من الآخر المعارض.

مما تجدر الإشارة إليه أن الشواهد الشعرية التي أوردها القاضي الجرجاني لإثبات ما في شعر المتنبي من محاسن، تفوق كماً تلك الشواهد التي أوردها دليلاً على ما في شعره من تكلف، وليس ذلك الصنيع بمستغرب إذا تم النظر إليه في ضوء ما ذكره في مقدمة هذا الجزء، وهو أن تلك المساوئ لا تزيد عن أحرف وألفاظ تعدى بهما الخصم إلى الحكم على الشعر جملة، يقول: (قد رأيتك – وفقك الله – لما احتفلت وتعمّلت، وجمعت أعوانك واحتشدت، وتصفحت هذا الديوان حرفًا حرفًا، واستعرضته بيتا بيتا، وقلبته ظهراً وبطناً، لم تزد على أحرف تلقطتها، وألفاظ تمحلتها) الوساطة: ص٨٢، وبذلك سوف يعلم قارئ الخطاب أن المشترك بين المخاطِب والمخاطَب لا يمثل إلا جزءاً يسيراً من شعر المتنبي، ولأجل ذلك استند الخطاب حجاجيًا إلى الأبيات التي تمثل الأحكام المسلّم بما فيها من تكلف، لكنه لم يشارك الخصوم دعواهم التي استندت إلى الذاتية، ودلت على

تعصب واضح، فعلى الرغم من أن هناك من المعايير ما هو مسلّم به عند البلغاء والنقاد فإن من الأحكام أيضاً ما لا يستند إلى تلك المعايير، وإنما يستند إلى بصيرة أهل الصناعة الذين كما قال القاضي الجرجاني: (يرجع إليهم في خصائصها، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها) الوساطة: ص١٠٠.

هذا القول يراد له أن يكون تمهيداً أو مقدمة تؤدي إلى نتيجة تتولد عنها، وهي أن كثيرا من الشواهد الشعرية التي لم تحظ بالقبول لدى الخصوم تعد بمثابة حجة ودليلاً على مجافاتهم للصواب، وتبنيهم موقفًا معاديًا غير مستند إلى علم، وقد يكون القصد أيضاً أن يتم تناول تلك الشواهد الشعرية بوصفها من الأبيات التي تحظى بالقبول لدى البعض دون البعض الآخر، وذلك مما يحركها من منطقة المساوئ إلى المختلف حوله، وسواء أراد القاضي الجرجاني أن يجعلها من المستحسن أو أن يجعلها من المختلف حوله فإنه بذلك قد قلّص عدد الأبيات التي يعتبرها الخصوم من مساوئ شعر المتنبي، منتهجًا في ذلك استراتيجية التدرج في عرض الموضوعات وترتيبها وفق خطة معدة سلفًا تسهم في إقناع المتلقي، ومحققاً لفعالية الخطاب لأنه (ليس هناك حجاج جاهز أو مُعطى منذ البداية، بل هو عملية يتم بناؤها تدريجيًا، وتتطلب تكيفًا مستديمًا لعناصرها إلى نهاية إتمام الحجاج... لذلك تأتي فعالية الخطاب الحجاجي من طريقة بنائه

وتفاعل عناصره، وديناميةمكوناته)[١٦]، وكما تناول القاضي الجرجاني موضوع مفهوم الشعر وطبيعته في إطار بنية الخطاب الاستدلالية، فكذلك تناول موضوع السرقات الشعرية بالكيفية ذاتها من أجل تحقيق فعالية خطابه الحجاجي.

ثانياً: أوجه التفاعل النصي / السرقات الشعرية:

عرض القاضي الجرجاني من خلال موضوع "السرقات الشعرية" أساليب متعددة للتعالق النصي مما سوف يتم استخدامها وتوظيفها من أجل تحقيق أمرين مهمين؛ أولهما: تأكيد البعد الثقافي للخطاب الشعري الذي يضم في ثناياه مجموعة من النصوص المتشابكة، وثانيهما: الحكم على شعر المتنبي في إطار هذه النظرة الكلية الثقافية بوصفه نصًا شعريًا يتصل ويتقاطع مع مختلف النصوص السابقة عليه أو المعاصرة له، أي أن يحاجج عنه في ضوء هذا البعد الثقافي، ومن ثم لم ينفصل ما قدمه القاضي الجرجاني من وسائل التعالق النصي عن غاية تحقيق هذين الأمرين.

قسّم القاضي الجرجاني العلاقات بين النصوص تبعًا لمحاكاة الشاعر المحدث للنص القديم إلى ثلاثة أنواع هي: الزيادة والنقل والقلب.

في العلاقة الأولى ردّ القاضي الجرجاني القدرة على تحويل المعنى المتداول إلى معنى مبتدع إلى كفاءة الشاعر وعلمه بصنعة الشعر، فعلى الرغم من اشتراك الشعراء في المعنى المتداول، فقد (ينفرد أحدهم بلفظة تستعذب، أو ترتيب يستحسن، أو تأكيد يوضع موضعه، أو زيادة اهتدى لها دون غيره؛ فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع) الوساطة: ص١٨٦، وعلى إثر ما قدمه القاضي الجرجاني من نماذج شعرية لهذا النوع من العلاقات بين النصوص ذات المعاني المشتركة فإنه يستشهد أيضاً بأحد أبيات المتنبي مستحسناً ما قام به من زيادة حسنة، يقول:

(وما ضرّ قول المتنبي:

فاستعار الحديدُ لونًا وألقى لونه في ذوائب الأطفال

وإن كان مأخوذاً من قول العامة: هذا أمر يشيب الطفل، وكانت الشعراء قد تداولته وابتذلته حتى أخلق ورث، وقد زاد فيه الزيادة المليحة) الوساطة: ص١٩٠، وقطعًا لا يخفى مدى استحسان القاضي الجرجاني لبيت المتنبي، فالمعنى الذي أخلق ورث قد تحول إلى معنى جديد بزيادة حسنة أكسبته تفرده وخصوصيته، وبناء عليه جعل القاضي الجرجاني الموازنة بين المعنى المشترك والمعنى المبتدع آلية إقناعية تستهدف التأثير في المتلقي اعتمادًا على رصيده المعرفي للمعاني المتداولة.

بالإضافة إلى تلك الزيادة التي يتوافق فيها المعنى مع سابقه فإنه تأتي زيادة أخرى يحققها نقل المعنى من غرض إلى غرض آخر، وذلك في النمط الثاني من العلاقات وهو نمط "النقل"، وهذه الزيادة ليست معيبة عند القاضي الجرجاني كما يدل على ذلك وصفه للشاعر الذي يعمد إلى ذلك بأنه (الشاعر الحاذق) الوساطة: ص٢٠٤، غير أنه لم يذكر شيئًا من شعر المتنبي عند حديثه عن هذا النمط من العلاقات، وأرجأ الاستشهاد على ذلك من شعر المتنبي إلى الجزء التالي وعنوانه: "سرقات المتنبي"، ويلاحظ من خلال تعليقاته على الأبيات استحسانه لما قام به المتنبي من نقل للمعنى، مثال ذلك قوله: (فنقله أبو الطيب إلى الزمان فصار كالمعنى المنفرد) الوساطة: ص٢٢٣، وقوله: (فنقله أبو الطيب وغير معناه فقال وأحسن ما شاء) الوساطة: ص٣٩٩، وبذلك تشكل القدرة على الإبداع في الأخذ من المعاني آلية حجاجية تسهم في الدفاع عن سرقات المتنبي، وقد وضع المحققان عنواناً فرعيًا للجزء الذي تحدث فيه القاضي الجرجاني عن النقل وهو: "التفنن في السرقة" وذلك استنادًا إلى ما ذكره القاضي الجرجاني عن صعوبة التعرف على هذا النمط بين بيتين متباعدين في الغرض، إلى الحد الذي جعله يقول: (فإذا مرَّا بالغبي الغفل وجدهما أجنبيين متباعدين، وإذا تأملهما الفطن الذكي عرفه قرابة ما بينهما) الوساطة: ص٢٠٤، أي أن ذلك

من دلائل مهارة الشاعر الذي اختلس المعنى فعدل به عن غرضه، وأظهره في حال لا يدركها إلا من له فطنة وبصيرة، إلا أن تلك الأوصاف عن الشاعر وأصناف المتلقين قد تبدو في تحيزها لذلك النمط متعارضة مع سياق الحديث عن السرقات الشعرية، لكن معاودة النظر إلى أنماط التعالق النصي أو أنماط السرقات الشعرية التي اختار القاضي الجرجاني الحديث عنها في ضوء حجاجية خطاب الوساطة سوف تكشف عن قصد وتعمد اختيار أنماط محددة تنتقل بمفهوم السرقة من دائرة العيب إلى دائرة الفن والإبداع.

يؤيد ذلك ما وصف به القاضي الجرجاني النمط الثالث من السرقات الشعرية وهو نمط القلب أو عكس المعنى بقوله: (ومن لطيف السَّرق ما جاء به على وجه القلب، وقصد به النقض، كقول المتنبي:

أأحبه وأحبُّ فيه ملامةً إن الملامة فيه من أعدائه

إنما نقض قول أبي الشيص:

أجد الملامة في هواك لذيذةً حبًّا لذكْرِكِ فليلُمني اللوَّم)

الوساطة: ص٢٠٦

من الواضح فيما ذكره القاضي الجرجاني عن أنماط التعالق النصي أنه يتخذها حجة للإقناع بإبداع المتنبي والانتصار له، فالمعنى لديه ذو رحابة جاذبة لنصوص متعددة، ويتراءى المعنى من

خلال تلك النصوص في صور مختلفة، وتحولات شتى، فينتقل من المبتذل إلى المخترع، ومن غرض النسيب إلى غرض المديح، ومن المعنى نفسه إلى ما هو عكسه، وهكذا تبدو السرقة الشعرية وكأنها نوع من تطور المعنى ونموه واستمراريته، ولهذا بدأ القاضي الجرجاني الجزء الذي عنوانه "سرقات المتنبي" بقوله: (وهذا ما ادُّعي على أبي الطيب فيه السرقة) الوساطة: ص٢١٦ ليصبح بذلك ما نسب إلى المتنبي من سرقات مجرد إدعاء يدحضه ما سبق أن قام القاضي الجرجاني بتأسيسه عند حديثه عن تطور المعاني وحركتها المتجددة بما لا ينفي عنها أصالتها وقوتها المتنامية بين السابق واللاحق، وسوف يجد المتابع لهذا الجزء صدى لهذا الفهم عندما تتواتر الأبيات متشابهة المعاني غير مصحوبة – إلا فيما ندر – بآراء ترجح بيتًا على آخر، حيث تتتابع أقوال الشعراء في معنى من المعاني بسلاسة ظاهرة، وفي بعض الأحيان القليلة ترد تعليقات القاضي الجرجاني مثل: (وبيت أبي الطيب أجود وأسلم) الوساطة: ص٢١٩، أو أن المتنبي قد أضاف للمعنى المشترك (فجاء كالمعنى المخترع) الوساطة: ص١٧٦، وهكذا لم يكن القاضي الجرجاني يتوقف كثيرًا إزاء المعاني في تحولاتها عبر أبيات الشعراء، وإنما كان يستهدف عرض المعنى في سيرورته ونموه، وهو بصنيعه هذا ينتصر للمتنبي ولا يعتذر عنه، إذ تصبح أبيات المتنبي التي ادُّعي

عليه السرقة فيها جزءًا أصيلاً من منظومة تجمع في إطارها أنماطاً متعددة من النصوص المتصلة بوشائج المعاني مما يحفظها في بنية ثقافية تستوعب نموها التاريخي.

٤ - الطابع الحواري:

يقتضي التعرف على آليات الإقناع في كتاب الوساطة الإحاطة بأهم أبعاده الأسلوبية، وهو الطابع الحواري الذي وسم الخطاب بطبيعة بلاغية تواصلية تتصف بالقصدية، فلا يكاد يخلو موضوع من موضوعات الكتاب من عبارات تتوجه إلى مخاطب، وفي ظل اختلاف الآراء وعرضها والرد عليها يتحول المخاطب من كونه مخاطبًا سلبيًا إلى أن يصبح مشاركًا مهمًا لا يمكن الاستغناء عنه في عملية التواصل، وهذا الاهتمام بالمتلقي هو ما سعت البلاغة الجديدة إليه بوصفه أساسًا من الأسس التي تسهم في تحقيق الجانب الإقناعي للبلاغة، ذلك الجانب الذي تأسس (على مسوغ يقوم بالتركيز على الجمهور كمشارك جدلي)[١٧]، ويرجع الاهتمام بالطابع الحواري إلى ما أفادته البلاغة الجديدة من (نظريات أخرى في تحليل النص، فالحوارية، بوصفها سمة بلاغية حجاجية تسم عديدًا من النصوص، مفهوم تبلور أساسًا في الشعرية أو في نظرية الرواية، بيد أنه أصبح مثمرًا في التحليل البلاغي الحجاجي للخطابات)[١٨]، ومن ثم حققت

البلاغة في ارتباطها بنظريات متعددة، وبأنواع مختلفة من الخطابات اتساعًا على المستويين النظري والتحليلي.

يرجح أحد الآراء أن مقدمة كتاب الوساطة اختص بها القاضي الجرجاني الصاحب بن عباد ردًا على مؤلفه "الكشف عن مساوئ المتنبي"، إذ (تبدأ الوساطة بمقدمة طويلة، موجهة إلى الصاحب ابن عباد، ونحن نعلم أن الصاحب كان قد ألّف رسالة في "الكشف عن مساوئ المتنبي"، فندرك أن القاضي إنما يتصدى للرد على هذه الرسالة – ومن ورائها وما شاكلها من مؤلفات قامت على أساس العداوة الشخصية، كنقد الحاتمي، وابن وكيع التنيسي للمتنبي – وأن علاقته بالصاحب لم تمنعه من المجابهة الصريحة، بل لم تمنعه أن يغلظ له القول في أحيان كثيرة، قيامًا بأمانة العلم، ومسئولية الرأي، ونزاهة الحكم)[١٩].

وبالرجوع إلى ما قاله الثعالبي عن أسباب تأليف كتاب الوساطة يتبين أن الكتاب كله – وليست المقدمة فقط – قد جاء تعقيبًا على رسالة الصاحب بن عباد، يقول: (ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة في إظهار "مساوئ المتنبي" عمل القاضي أبو الحسن كتابه "الوساطة" فأحسن وأبدع، واستولى على الأمر في فصل الخطاب، وأعرب عن تبحره في الأدب وعلم العرب، وتمكنه من جودة الحفظ، وقوة النقد)[٢٠].

وسواء أكانت المقدمة فقط موجهة بشكل خاص إلى الصاحب بن عباد، أو أن الكتاب كله موجه إليه، أو إلى أي متلــق آخــر يتبنــى موقفًا معارضًا لشعر المتنبي، فإن هذا النهج الأسلوبي الذي اتخــذه القاضي الجرجاني ووسم خطابه بهذا الطابع الحواري مما يدفع إلى النظر إلى خطاب الوساطة بوصفه خطابًا ينتمي إلى ما يمكن تسميته بـــ "أدب الردود" (وهو أدب تعود نشأته إلى فترة مبكرة من تــاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ارتبط ظهوره بمسائل الدين وأصــول الاعتقاد، ثم اتسع ليشمل كل كتابة يكون القصد منها التعبير عن عدم القبول وعن التخطئة وبيان الزيف في كل ما تختلــف بشــأنه الآراء وتفترق وجهات النظر)[٢١]، ولهذا فإن ملمحًا مهمًا يتعلــق بــأنواع المخاطبين في كتاب الوساطة يبدو ذا أهمية في هذا السياق، حيــث حصر القاضي الجرجاني المخاطبين من حيث آرائهــم فــي شــعر المتنبي في فئتين وليس في فئة واحدة تقف موقف المعارضة، يقول:

(وما زلت أرى أهل الأدب – منذ ألحقتنــي الرغبــة بجملــتهم، ووصلت العناية بيني وبينهم – في أبي الطيب أحمــد بــن الحســين المتنبي فئتين: من مُطنب في تقريظه، منقطع إليه بجملته، منحط في هواه بلسانه وقلبه... وعائب يروم إزالته عن رتبته، فلم يســلِّم لــه فضله، ويحاول حطه عن منزلة بوأها إياه أدبه، فهو يجتهد في إخفاء

فضائله، وإظهار معايبه، وتتبع سقطاته، وإذاعة غفلاته. وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه). الوساطة: ص٣

بناء عليه فإن خطاب الوساطة لا يحاور متلقيًا معارضًا فحسب، بل يحاور متلقيًا مؤيدًا أيضًا، وإذ يجمع القاضي الجرجاني بين المعارضة والتأييد في جهة واحدة هي جهة الظلم، فإنه يقف وحده في الجهة المقابلة/ جهة العدل، ولهذا يقول: (وكما أن الانتصار جانب من العدل لا يسده الاعتذار؛ فكذلك الاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار، ومن لم يفرق بينهما وقفت به الملامة بين تفريط المقصر، وإسراف المفرط). الوساطة: ص٣، ٤

يتوافق هذا التعقيب الأخير مع ما سبق أن ذكره القاضي الجرجاني عن قيمة العدل، تلك القيمة التي يستند إليها مؤلف الخطاب وهو يحاور مخاطبًا يتبنى موقفًا ظالمًا، سواء بالتأييد التام لشعر المتنبي، أو بالمعارضة غير المنصفة، وذلك مما يدعو إلى النظر إلى الأسلوب الحواري في كتاب الوساطة بوصفه آلية حجاجية تعزز رأي المؤلف في دفاعه عن شعر المتنبي وإثبات قيمته الفنية، (إن الباعث أو المحرك الأول للحجاج هو الاختلاف Disagreement فالحجاج لا يكون فيما هو يقيني أو إلزامي، فنحن لا نحاجج في أمر مأخوذ على أنه حقيقة يقينية راسخة كالحقائق الرياضية مثلاً، أو في أمر مأخوذ على أنه أمر صارم واجب النفاذ،

وإنما يكون الحجاج – كما يقول بيرلمان – فيما هو مرجح Likely وممكن Plausible ومحتمل Probable)[٢٢].

هذا الطابع الحواري في كتاب الوساطة ما هو إذن إلا استراتيجية خطابية يسعى المؤلف من خلالها إلى تحقيق وظيفة إقناعية لدفاعه عن شعر المتنبي أو لاعتذاره عن زلاته، فمنذ الجملة الافتتاحية للخطاب يضع القاضي الجرجاني اللبنة الأولى لهذا البعد الأسلوبي وذلك باختياره جملة اعتراضية تفصل بين المبتدأ والخبر، وقد كان من الممكن الاستغناء عنها، حيث يقول: (التفاضل – أطال الله بقاءك – داعية التنافس) الوساطة: ص١، وهو على امتداد الخطاب يستحضر المخاطب باستخدام أمثال تلك الجمل الاعتراضية المتضمنة صيغة الدعاء، كما في قوله: (ولم تزل العلوم – أيدك الله – لأهلها أنساباً تتناصر بها) الوساطة: ص٢، وقوله: (أنا أقول – أيدك الله – إن الشعر علم من علوم العرب) الوساطة: ص١٥ وقوله: (وقد رأيتك – وفقك الله – لما احتفلت وتعملت...) الوساطة: ص٨٢، وقوله: (والسرق – أيدك الله – داء قديم) الوساطة: ص٢١٤، كما يتضح هذا التوجه إلى المخاطب في بدايات الموضوعات الفرعية في الكتاب، كما في موضوع "تفاوت شعر أبي نواس" الذي يبدأ بقول القاضي الجرجاني: (ولو تأملت شعر أبي

نواس حق التأمل ثم وازنت... وغدوت... لعظمت... ولأكبرت... ولعلمت) الوساطة: ص٥٥.

وموضوع "تفاوت شعر أبي تمام" الذي يبدأ بهذا الخطاب: (ولو لزمت هذا المثال في شعر أبي تمام لتظاهرت عليك الحجج، وكثرت عندك الشواهد، فقوي في نفسك رأيي واعتقادي، وتصور لك صدقي وإصابتي) الوساطة: ص٦٥.

وموضوع "السرقات الشعرية" وبدايته: (قد أنصفناك في الاستيفاء لك، والتبليغ عنك، ولسنا ننكر كثيرًا مما قلته، ولا نرد اليسير مما ادعيته) الوساطة: ص١٨٣، وموضوع "دفاع المؤلف عن أبي الطيب" وأول عباراته: (وقد تفقدتُ ما أنكره أصحابك من هذا الديوان) الوساطة: ص٤١٥، وموضوع "من مآخذ العلماء على أبي الطيب ودفاع المؤلف عنه" وبدايته: (قد قلت في هذه الأبواب بقدر ما احتملت الرسالة قولاً مجملاً يسهل لك السبيل ويوقفك على جهة الاحتجاج) الوساطة: ص٤٣٤

بطبيعة الحال لم يقتصر الأسلوب الخطابي على بداية الموضوعات الفرعية، إذ حفلت تلك الموضوعات بخطاب حواري شغل منها مساحة واسعة، وأسهم في وسم الخطاب ببعد حجاجي تمثل في كثرة استخدام القاضي الجرجاني لألفاظ دالة على الحجاج، من أمثلة ذلك: (فتجعل هؤلاء شهودك وحججك) الوساطة: ص٤٩

(عدنا بك إلى بقية شعره فحاججناك به) الوساطة: ص٥٣ (لتظاهرت عليك الحجج) الوساطة: ص٦٥ (وعجلت بالحكم قبل استيفاء الحجة) الوساطة: ص٨٢ (ونعارض حجتك) الوساطة: ص١٠٠ (ولا تضعف معه محاجتك) الوساطة: ص١٧٨، (فإن رأيتني جاوزت لك موضع حجة فردني إليها) الوساطة: ص١٧٨ (غير أن لخصمك حججًا تقابل حججك) الوساطة: ص١٨٣، ومما يثير الانتباه هو مدى الجهد المبذول من قبل المؤلف لاستمالة المخاطب، فلا يخفى مغزى الخطاب التالي في الجزء الذي عنوانه: "بدء الوساطة" وهو: (وأقبل عليك أيها الراوي المتعتب فأقول لك) الوساطة: ص٥٣، وذلك لما له من بعد تأثيري واضح، فالخطاب صادر من ذات حريصة على التواصل والتحاور، لا من ذات متعالية ترفض الآخر وتضع بينها وبينه حاجزاً من الاستبداد بالرأي، ولذا فالقاضي الجرجاني يفسح لجدال الرافض أو المعارض أقصى مدى إمعاناً في تأكيد هذا المقصد التأثيري الذي يتجاوز محض التأثير الوجداني إلى السعي نحو تغيير المفاهيم، وتعديل الرؤى، ولأن غاية الخطاب ليست الرد على أولئك الذين يسعون إلى حط المتنبي عن منزلته فحسب، وإنما أيضاً تصويب موقف فئة أخرى أسرفت في إطنابه ومدحه، فإنه في الجزء الأخير من كتاب الوساطة وعنوانه: "ما عاب العلماء على أبي الطيب" يبرز دور المخاطب المؤيد الذي أسند إليه القاضي الجرجاني

دور الدفاع عن المتنبي ضد ما عابه عليه العلماء، فقد أورد الأبيات الشعرية التي أنكرها أهل العلم واستضعفوها وعقّبها بأقوال من احتج عن المتنبي، مستخدمًا عبارات مثل: (فقال المحتج عنه) الوساطة: ص٤٤١، (زعم بعض المحتجين عنه) الوساطة: ص٤٤٧، (قال بعض من يحتج عن أبي الطيب) الوساطة: ص٤٦٩، وذلك في المقابل من عبارة (قال الخصم) الوساطة: ص٤٥٨، التي تكررت كثيراً لتخلق أجواء من الجدال الذي تقرع فيه الحجة بالحجة.

أراد القاضي الجرجاني إذن أن يعرض – في هذا الجزء الأخير من الكتاب – التحاور بين الفئتين اللذين أشار إليهما في مقدمة الخطاب، وذلك من أجل تفعيل مقصد الخطاب وغايته، والوقوف موقف الوساطة بين الخصوم، ومن ثم فهو يذكر رأيه بعبارات واضحة ودالة على تبنيه لرأي دون غيره، مثل تعقيبه على الآراء بقوله: (وأقول) الوساطة: ص٤٤٣، ٤٤٩، ٤٧١، ومثل قوله: (قد قال الفريقان ما حكيناه، وقد كان لأبي الطيب في الصحيح مندوحة، وفي المجتمع عليه متسع) الوساطة: ص٤٤٦، وقوله: (غير أن أبا الطيب عندي غير معذور بتركه الأمر القوي الصحيح إلى المُشكل الضعيف الواهي لغير ضرورة داعية) الوساطة: ص٤٤٩، وقوله: (وأقرب ما يقال في الإنصاف ما أقوله إن شاء الله تعالى) الوساطة: ص٤٧١، وباستخدام أمثال تلك العبارات يهدف مؤلف الخطاب إلى

التأثير في المتلقي، محاولاً استمالته إلى آرائه التي تبدو في ظاهرها أنها مؤيدة لأقوال الخصوم، إلا أن تأمل هذه الردود يكشف عن غياب الجهد الإقناعي المبذول من أجل كسب تأييد المخاطب، ويبدو الأمر وكأنه محاولة لإظهار موقف المؤلف الحيادي، فعلى سبيل المثال وصف القاضي الجرجاني ما عابه العلماء على أبيات المتنبي بصفة "المُشكل" وهي صفة يتضاءل معها العيب أو الخطأ لأنها تحدد ضمنياً موقفين أو أكثر فيما يختص بتلقي تلك الأبيات، مما يعني أنه قد يكون أحد تلك المواقف على صواب.

٥ - **حجة الشاهد القرآني:**

يعزز الشاهد القرآني المنحى الإقناعي في خطاب الوساطة، فقد شكل النص القرآني منطلقًا مهمًا لتأكيد الرأي وإثباته، فهو يحقق للرأي مبرره، وللخطاب حجته التي تقطع أي شك، وهذا النهج اعتمده الكثير من البلاغيين والنقاد ورواة الأخبار في كتاباتهم الهادفة إلى الإقناع (فقد استمدت معظم النصوص قدرتها على التأثير من سلطة النص القرآني، بل لم تتجاوز أبرز النصوص حل بعض الآيات القرآنية لاعتبارهم إياها من أقدر الأشياء على تقديم العون للكاتب مهما اختلف نوع وجنس مكتوبه)[٢٣].

في الجزء الذي عنوانه "من مآخذ العلماء على أبي الطيب ودفاع المؤلف عنه" يذكر القاضي الجرجاني أن من بين أصناف

المعترضين على شعر المتنبي من: (لا علم له بالإعراب، ولا اتساع له في اللغة، فهو ينكر الشيء الظاهر، وينقم الأمر البين) الوساطة: ص٤٣٨، ٤٣٩ ويمثل لذلك بإنكار أحد المعترضين قول المتنبي:

فالغيث أبخل من سعى

فزعم أن من لا تكون إلا لما يعقل، و"أفعل" لا يجري إلا على البعض من تلك الجملة، تقول: زيد أفضل من الناس؛ فلابد أن يكون زيد من الناس). الوساطة: ص٤٣٩

بداية وصف القاضي الجرجاني المعترض بالجهل بقواعد الإعراب وأساليب اللغة، ولأن هذا الوصف يعد دعوى تحتاج إلى بينة ودليل، فقد شكلت الآيات القرآنية حجة داعمة لهذا الوصف، وتأكيدًا على أن ما قاله المتنبي لا يتعارض مع ما استقر عليه العرب في كلامهم، قال القاضي الجرجاني: (وهذا الاعتراض يدل على تقصير شديد في العلم بكلام العرب، لأن العرب إذا وصفت الشيء بصفة غيره استعارت له ألفاظه، وأجرته في العبارة مجراه، وإن كان لو انفرد انفرد عنه بصفته وتميز دونه بعبارته؛ فمن ذلك قول الله تعالى: " وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ "... وكذلك قوله حاكيًا عن السموات والأرض: " قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ".... وعلى هذا قوله عز وجل: " وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ " وهو كثير). الوساطة: ص٤٣١

تؤدي الآيات القرآنية هنا وظيفة إقناعية تتمثل في تأكيد الرأي وإثبات صحته، ولأن السياق الذي وردت فيه الآيات هو الحوار مع المخاطب المعترض على ما في شعر المتنبي من أساليب لغوية، فقد تمثلت وظيفة الاستشهاد بالنص القرآني في حمل هذا المخاطب/المعترض على الاعتراف بجهله وخطئه، ومن ثم استحضار دوافع الثقة واليقين فيما يقوله مؤلف الخطاب، وفي السياق ذاته قال القاضي الجرجاني: (وعابوا قوله:

وإني لمن قوم كأن نفوسنا بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما

فقالوا؛ قطع الكلام الأول قبل استيفاء الكلام وإتمام الخبر، وإنما كان يجب أن يقول: كأن نفوسهم، ليرجع الضمير إلى القوم، فيتم به الكلام). الوساطة: ص٤٤٦

وأمام هذا الاعتراض عرض مؤلف الخطاب لأقوال بعض المحتجين عن المتنبي، الذين استندوا في حجتهم إلى كلام العرب الذي ورد في أشعارهم، ويؤكد الشاهد القرآني صحته (قالوا: وقد جاء في القرآن العزيز: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا ".... ومثل هذا قوله تعالى: " وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ") الوساطة: ص٤٤٧، وهكذا أسهم الشاهد القرآني في إمداد الرأي بطاقة إقناعية تجعله أكثر تصديقاً وقدرة على التأثير في المخاطب

المعترض، وذلك لاستناده إلى مرجعية صادقة تعد حجة على صحة الرأي وقوته.

٦ – التفاعل النصي:

إذا كان الاستشهاد بالنص القرآني مما يعد آلية حجاجية تحظى بالقبول والثقة والتصديق بآراء مؤلف الخطاب انطلاقاً من استناده إلى خلفية دينية لها سلطتها المعنوية عند المخاطب، فإن شكلاً آخر من أشكال العلاقات النصية يمكن أن يعد دليلاً أو برهانًا على صحة الرأي، وهو أن يستثمر مؤلف الخطاب بعض النصوص الخبرية ويطوعها في نسيج الخطاب من أجل تحقيق الإقناع، ومن بين وسائل التفاعل مع الخبر (الاشتباك معه نقدًا وتلخيصًا أو شرحًا وتعليقاً)[٢٤].

تراوحت الأسباب التي دعت إلى الإفادة من النصوص الخبرية ما بين الاتكاء على مضمونها لتدعيم الرأي، أو الرفض الذي يقوض خطاب الآخر ويكشف ما به من تناقض، ففي الجزء الذي عنوانه "الإفراط في الاستعارة" لم يحدد القاضي الجرجاني معيارًا نقديًا للكشف عن المستحسن من الاستعارة والمستقبح منها، وإنما ردّ ذلك إلى قبول النفس أو نفورها، ولذا فإنه بدا متسامحًا مع من جاراه أبياتًا للمتنبي، خلت فيها الاستعارات من المناسبة والمقاربة بين المشبه والمشبه به، وعلى الرغم من اعتماد القاضي الجرجاني أسلوب الموازنة بين ما قاله المتنبي وما قاله غيره من الشعراء المحدثين –

دفاعًا عن شعر المتنبي – فإنه أورد هذا النص الخبري الذي يمنح الآراء المختلفة مساحة رحبة للتلاقي، يقول: (حدثني جماعة من أهل العلم عن أبي طاهر الحازمي وغيره من شيوخ المصريين عن يونس بن عبد الأعلى قال: سألت الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فقال: إني لأجد بيانها في قلبي، ولكن ليس ينطق بها لساني). الوساطة: ص٤٣٠

أعطى القاضي الجرجاني لهذا الخبر مصداقيته بارتكازه على أمرين مهمين؛ أولهما: السماع وما يتضمنه من إيحاء بالواقعية، وثانيهما: أن مصدر الخبر هو أهل العلم "جماعة من أهل العلم"، وكذلك أسهم الاهتمام بالسند في إرساء البعد الحجاجي للخبر، إذ بدت العناية الواضحة بالسند من أجل تهيئة المتلقي وإعداده لتقبل الخبر وترسيخ مقصده ومصداقيته، وفضلاً عن ذلك يأتي تعليق القاضي الجرجاني على هذا النص ليعقد الصلة بين الخبر ومقاصد الخطاب، يقول: (وما أقرب ما قاله من الصواب وأخلقه بالسداد! وقد أجد لهذا الفصل الذي تخيل له بعض البيان). الوساطة: ص٤٣٠

ويعد هذا الاستحسان لما قاله الشافعي توطئة للإقناع بأهمية المهارة التي ينبغي على متلقي النص أن يتحلى بها من أجل التفرقة بين الجيد والرديء، أو بين المستحسن والمستقبح، ولذا لم ينكر القاضي الجرجاني على مخاطبه تحليه بتلك المهارة، إذ يجد

لاعتراضه "بعض البيان"، وبذلك أصبح الاتفاق مع أقوال العلماء حجة على مصداقية الرأي، ومبررًا للتسليم بوجود مساحة مشتركة من الاتفاق بين المخاطِب والمخاطَب.

وكما اتبع القاضي الجرجاني في الإقناع برأيه تلك الإستراتيجية الحجاجية التي اعتمدت تدعيم الرأي بأقوال بعض الشخصيات التي تتمتع بمصداقية مستمدة من سلطتها الدينية، فإنه كذلك يعرض الرأي المعارض منكرًا عليه موقفه المتسم بالعصبية واتباع الهوى والتحامل في النقد، وذلك على الرغم مما يتمتع به أصحاب تلك الآراء من سلطة أدبية كالأصمعي وابن الأعرابي، يقول: (حُكي عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال: أنشدت الأصمعي:

هل إلى نظرة إليكَ سبيلُ فيبلّ الصدى ويُشفى الغليل
إن ما قلّ منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال: والله هذا الديباج الخُسرَواني، لمن تنشدني؟ فقلت: إنهما لليلتهما فقال: لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر. وعن ابن الأعرابي في أبيات أبي تمام في الروض نحو من هذا. وله نظائر مشهورة تُحكى عن الأصمعي ومن بعده. وقد بعدت بهم العصبية في ذلك إلى تناول بعض المتقدمين). الوساطة: ص٥١

استهدف الحدث المذكور في الخبر وظيفة حجاجية تمثلت في الكشف عن الذاتية التي يستند إليها الحكم النقدي عند شخصيات مثل

الأصمعي وابن الأعرابي، وذلك مما يحمل المخاطب على التحلي بالموضوعية وإنصاف تلك الفئة من الشعراء المحدثين، والاعتراف بالخطأ الذي بنيت عليه الأحكام التي سلبتهم حقهم في الإجادة والتميز والنبوغ، ولهذا ارتبط تعليق القاضي الجرجاني على هذا الخبر، وما شابهه من أخبار بمقاصد الخطاب، حيث تؤدي تلك التعليقات إلى إثارة انتباه المتلقي من أجل تقوية الرأي المراد الإقناع به، بدا ذلك في قوله:

(زعم الأصمعي أن العرب لا تروي شعر أبي دواد وعدي بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية؛ وكيف يكون ذلك! وهذا معاوية يفضل عديّاً على جماعة الشعراء. وهذا الحطيئة يُسأل: من أشعر الناس؟ فيقول: الذي يقول: وأنشد لأبي دواد...) الوساطة: ص٥١، وفي قوله: (ولو أنصف أصحابنا هؤلاء لوُجد يسيرهم أحق بالاستكثار وصغيرهم أولى بالإكبار) الوساطة: ص٥٢، وفي قوله أيضاً: (فلا تشتغلن بهذه الطائفة مادمت تنظر بين المتنبي وأهل عصره، وأخّر المنازعة في هذا الرأي). الوساطة: ص٥٢

تسترفد أمثال تلك التعليقات أهميتها من ارتباطها بأحداث واقعية، وبسياقات محددة، أغنَت الخطاب ببعد تأثيري واضح، وتجلت بناء عليه مصداقية مؤلف الخطاب ودوره في إقناع المتلقي، ومما أسهم أيضًا في تعزيز مصداقية مؤلف الخطاب أنه كان يعلي من قيمة

العلماء الذين يعارض آراءهم، فلا يصفهم إلا بالتحامل في النقد، يقول:

(وقد حدثني بعض أهل الأدب أنه حضر عند أبي الحسن بن لنكك البصري – وكان على فضله في العلم، وتقدمه في الأدب – شديد التحامل على أبي الطيب، وهو يذكر شيئًا من شعره حتى انتهى إلى قوله:

بقائي شاء ليس هُمُ ارتحالا

فجعل يعجب من هذا المصراع من حضره ويقول: هل رأيتم أشد تعقيدًا وأظهر تكلفًا وأسوأ ترتيبًا من هذا الكلام! قال: فقلت له: هب الأمر على ما ادعيته، وأنا سلمنا لك ما زعمته، أين أنت من قوله في إثر هذا البيت:

كأن العيس كانت فوق جفني مناخات فلما ثرن سالا

قال: فاستشاط غيظًا، ثم قال: هذا المصراع يسقط دواوين عدة شعراء). الوساطة: ص٤١٧

أسهمت مجموعة من العناصر في إرساء البعد الحجاجي للنص الخبري السابق، من أهمها اعتماد مؤلف الخطاب على السماع من بعض أهل الأدب مما يجعل الخبر أكثر واقعية وإقناعًا، ثم التأكيد على المكانة العلمية لصاحب المجلس مما يوحي بحيادية مؤلف الخطاب ويؤدي إلى الاستحواذ على ثقة المخاطب، وفضلاً عن ذلك

ارتكاز الخبر على الحوار الذي أسهم في تشويق المتلقي وتطلعه إلى الاستزادة من معرفة تطور الأحداث، وبذلك يصبح الخبر أكثر تأثيراً، وإذ تؤكد تلك المكونات النصية البعد الحجاجي للخبر فإنها في الوقت نفسه تسمح بتهيئة المتلقي لتقبل التعليق الذي تلا الخبر حيث يقول القاضي الجرجاني:

(فإن كان هذا الحكم سائغًا، وكان ما قاله مقبولاً، فإن أحد أبيات الفرزدق يسقط شعر بني تميم جملة... ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعرًا لوجب أن لا يرى لأبي تمام بيت واحد؛ فإنا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر من التعقيد حظهما). الوساطة: ص٤١٧

كشف هذا التعليق عن قدرة مؤلف الخطاب على الإقناع، وذلك لاستخدامه أسلوب الشرط الذي جعل المخاطب مشاركًا في إبطال الرأي المعارض، كما أن الشواهد الشعرية التي أوردها القاضي الجرجاني عقب ذلك قد أسهمت في إكساب هذا التعليق طابع جدالي يستند إلى تقديم الحجج.

٧ - **تمثيل الذات والآخر:**

يقف القاضي الجرجاني موقف الوساطة بين فئتين تختلفان في الرأي وتتنازعان على أحقية الاستئثار بالرأي الصواب تجاه شعر المتنبي، وما بين التأييد الكامل لهذا الشعر أو المعارضة الشديدة يرى

القاضي الجرجاني كما ذكر في المقدمة أن (كلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه) الوساطة: ص٣، وبناء عليه يستدعى هذا الخطاب الذي يقوم على ثنائية الـ (أنا) في مقابل (الآخر) أن ينشئ مؤلفه لذاته صورة إيجابية تسمح به بالوقوف حكمًا بين فريقين، قرر هو منذ البداية أنهما على خطأ، وأنه هو الحكم العدل بينهما، ومما تجدر الإشارة إليه أن تحليل آليات الحجاج لا ينفصل عن (تحليل صورة المتكلم في النص على أساس أن المتكلم يحاجج المتلقي بفضائله ومزاياه أو ما يسمى بالإيتوس، على نحو ما يحاجج بصورة المتلقي أو بالأهواء والمشاعر الوجدانية التي يثيرها في نفس المتلقي، أو ما يسمى بالباتوس)[٢٥]، وقد تنوعت في كتاب الوساطة طرق تمثيل الذات والآخر من أجل تبرير الدور الإيجابي الذي يقوم به مؤلف الخطاب، وتعد الأدوات المعنوية مثل سرد الصفات من أهم الطرق التي استخدمها القاضي الجرجاني في خطابه، وتتمثل كيفيات سرد الصفات فيما يلي:

أ – نفي الصفات السلبية عن الذات.

ب – إسناد الصفات الإيجابية للذات.

جـ – وصف الآخر بصفات سلبية/التمثيل السلبي للآخر.

أ – نفي الصفات السلبية عن الذات:

تنهض صورة الذات في خطاب الوساطة بوظيفة إقناعية لا تختلف أو تنفصل عن مجمل آليات الإقناع الأخرى، فهي تحقق وظيفتها المؤثرة والفاعلة في المخاطب بتشكيل نموذج إيجابي قادر على التأثير في المتلقي/ المؤيد أو المعارض، وهذا النموذج الإيجابي يستلزم نفي بعض الصفات التي تنتقص من كمال الصورة المتميزة للذات، من بين تلك الصفات العصبية والتحامل، يقول القاضي الجرجاني عقب ذكره للأبيات الشعرية الدالة على ما في شعر القدماء من أخطاء: (وأنه قول لا حظ له في العصبية، ولا نسب بينه وبين التحامل. وليس يجب إذا رأيتني أمدح محدثًا أو أذكر محاسن حضري أن تظن بي الانحراف عن متقدم، أو تنسبني إلى الغض من بدوي، بل يجب أن تنظر مغزاي فيه، وأن تكشف عن مقصدي منه، ثم تحكم عليّ حكم المنصف المتثبت، وتقضي قضاء المقسط المتوقف). الوساطة: ص١٥

يجعل القاضي الجرجاني من صفات الذات أحد سبل التحاور الحجاجي مع المتلقي، حيث إن سعيه إلى نفي صفات سلبية مثل العصبية أو التحامل في النقد إنما يعني في الوقت ذاته تأكيد صفات مضمرة تناقضها كالإنصاف والعدل والصدق، لذلك يعد تمثيل الذات بهذا الشكل الإيجابي أداة بلاغية تهدف إلى صياغة خطاب ينطوي على غاية تقويمية، فهو يقوّم فكر المخاطب ويوجهه نحو إحسان

الظن بمؤلف الخطاب، ويدعوه أن ينظر إلى المغزى والمقصد من استشهاداته الشعرية، ليكون الحكم عليه حكمًا منصفًا، وهذه التوجيهات التي يُطالب بها المخاطب ليست سوى إيحاء بصفات الحياد والموضوعية اللتين يتمتع بهما مؤلف الخطاب، وذلك مما يسهم في دفع المخاطب إلى التفكير والتروّي ومن ثم الاقتناع بالرأي، وخصوصًا أنه قد أسندت إلى المخاطب من الصفات ما يؤدي إلى استمالته نحو تأييد ما عرض عليه من آراء.

كذلك ينفي القاضي الجرجاني عن ذاته العصبية لشاعر أو العصبية على شاعر بقوله عند حديثه عن تكلف شعر أبي تمام: (ولست أقول هذا غضًا من أبي تمام، ولا تهجينًا لشعره، ولا عصبية عليه لغيره) الوساطة: ص٩، وبقوله عند موازنته بين أبيات للمتنبي وأبيات لابن المعذل: (فأما أنا فأكره أن أبت حكمًا أو أفضّل قضاء، أو أدخل بين هذين الفاضلين، وكلاهما محسن مصيب). الوساطة: ص١٢٢

وهكذا يسعى مؤلف الخطاب إلى تعديل اعتقاد المخاطب وتقويمه وفق رغبته في إضفاء صورة مثالية للذات تتصف بالحياد والموضوعية والإنصاف، لا بالعصبية والظلم والتحامل في النقد، وهذا التمثيل الإيجابي مما يدعم البناء الحجاجي للخطاب، فهو صادر عن ذات لا تميل عن الحق، ولا تركن إلى الهوى، ولا تنساق إلى

العصبية لشاعر أو العصبية على شاعر، وهذه الصفات التي تشكل صورة الذات هي ما تمنح الخطاب بعدًا إقناعيًا وقدرة على التأثير في المتلقي، ويؤازرها في الوقت ذاته الأسلوب الذي يتسم بالقوة ويضع الذات موضع الفاعلية كما ورد في النصين السابقين حيث تكرار الأفعال المضارعة التي تنسب إلى الذات: (أقول – فأكره – أبت – أفضل – أدخل)، وهذا مما يعمق قوة الذات ويعزز سلطتها المعنوية.

ب – إسناد الصفات الإيجابية للذات:

بناء على الإستراتيجية الإقناعية في خطاب الوساطة التي اعتمدت نفي صفات سلبية عن الذات، فإن التأكيد على الصفات الإيجابية كالوفاء والعدل والصدق والإنصاف مما أسهم حجاجيًا في ترسيخ صورة مثالية للذات، تحمل المخاطب على الاقتناع بما يعرض عليه من آراء وقضايا نقدية، فمؤلف الخطاب يعلن التزامه بالوفاء بالعهد الذي بينه وبين مخاطبه، يقول:

(قد وفينا لك بما اقتضاه شرط الضمان وزدنا، وبرئنا إليك مما يوجبه عقد الكفالة وأفضلنا) الوساطة: ص١٧٧، ويعلن أيضاً التزامه بالعدل في عرض الآراء، إذ يقول مخاطبًا المتلقي المعارض: (وإنما دعوناك إلى المقاصة، وسِمناك في ابتداء خطابنا المحاجة والمحاكمة؛ فلزمنا طريقة العدل فيها). الوساطة: ص١٧٧

من المثير للانتباه حرص القاضي الجرجاني على تأكيد صفاته الإيجابية في إطار خطابه إلى المتلقي وحواره معه، وإذا كان ذلك مما يومئ إلى البعد الحواري والتفاعلي للخطاب، فإنه أيضا يعد آلية إقناعية تتخذ من الآخر المخاطب مشاركًا في إنتاج الخطاب، وتقلل مساحة الاختلاف بين آرائه وآراء مؤلف الخطاب، وبهذه الكيفية لا يتم وضع رأي المتلقي في الاعتبار فحسب، وإنما يتيح له الخطاب كذلك الرد والتعليق على ما يتلقاه، وتتضح هذه الإستراتيجية الإقناعية في النص التالي حيث يقول القاضي الجرجاني للمتلقي المعارض: (ولعلك إذا رأيت هذا الجد في السعي، والعنف في القول تقول: إنما وقفت موقف الحاكم المسدد، وقد صرت خصمًا مجادلاً، وشرعت شروع القاضي المتوسط، ثم أراك حربًا منازعًا، فإن خطر ذلك ببالك، وحدثتك به نفسك فأشعرها الثقة بصدقي، وقرر عندها إنصافي وعدلي، واعلم أني رسول مُبلغ، وسامع مؤد، وأني كما أناظرك أناظر عنك، وكما أخاصمك أخاصم لك؛ فإن رأيتني جاوزت لك موضع حجة فردني إليها، ونبهني عليها، فما أبرئ نفسي من الغفلة، ولا أدعي السلامة من الخطأ). الوساطة: ص١٧٨

تتضح مهارة القاضي الجرجاني في تمثيل الذات من خلال تشكيل صورتين متناقضتين للذات، إحداهما هي ما ينبغي أن يكون عليه مؤلف الخطاب، إنها صورة "الحاكم المسدد" و"القاضي

المتوسط"، والثانية هي ما يتراءى للمتلقي الذي يرى مؤلف الخطاب وقد صار "خصمًا مجادلاً" و"حربًا منازعًا"، وهذا التحول وإن كان يتمثل في ذهن المتلقي، فإن وعي القاضي الجرجاني به، وحرصه على الحديث عنه إنما يكشف عن أمرين مهمين؛ أولهما: موضوعية مؤلف الخطاب والتزامه بعرض رأي المخاطب الذي يمثل صورته هو – أي مؤلف الخطاب – في عيون الآخرين، وثانيهما: التأكيد على الصفات الإيجابية التي سوف يتوالى ذكرها في النص لتنفي الصفات السلبية التي قد تخطر ببال المخاطب، وتحدثه بها نفسه، ومن أهم تلك الصفات الإيجابية: الصدق والإنصاف والعدل.

إن الأسلوب الجدلي في النص السابق مما يسهم حجاجيًا في حمل المخاطب على الاقتناع بصورة الذات الإيجابية، فهو يمنح المتلقي حضورًا فاعلاً، ويجعله حجة على صحة ما ورد من صفات إيجابية، ويسمح له بأن يحاور ويعارض وينبه إذا كان ثمة تجاوز بسبب الغفلة، أو خطأ غير متعمد، وليس هذا الأسلوب سوى أحد آليات الإقناع بالصورة التي يسعى مؤلف الخطاب إلى تجسيدها في خطابه.

جـ – التمثيل السلبي للآخر:

مما يثير الانتباه أن وصف الآخر بصفات سلبية كالجهل والعصبية قد يبدو متناقضًا مع توجه آخر يسعى من خلاله القاضي

الجرجاني إلى استمالة المخاطب بإشراكه في الحكم، وإعطائه دوراً فاعلاً في إنتاج الخطاب، إلا أن التأمل في تلك المراوحة بين هذين الأسلوبين مما يكشف عن سمات العلاقة المعقدة بين مؤلف الخطاب والمتلقي، فما بين التأييد والمعارضة تتحدد أساليب الخطاب، ولأن أصناف المخاطبين مما تعد مكونًا جوهريًا في عملية التلقي، فقد تجلى هذا المكون في عملية إنتاج الخطاب أيضًا، ومن جهة ثانية فإن القاضي الجرجاني لم ينكر ما يتسم به أسلوبه من شدة وصفها بأنها (الجد في السعي والعنف في القول) الوساطة: ص١٧٨، لكنه إذ برر تلك الشدة في ذلك الموضع بعبارات تتسم باللين، فإن أسلوبه في موضوع "السرقات الشعرية" قد بدا مختلفًا عن طريقته السابقة التي غلب عليها الحوار الهادئ والمناقشة العلمية التي تستند إلى أسس بلاغية لا خلاف عليها، ففي هذا الموضوع يتهم القاضي الجرجاني خصومه بالجهل والافتقار إلى المعرفة بطريقة لا تخلو من عنف في القول، يقول:

(وزعم خصمك أنك وأصحابك وكثيراً منكم لا يعرف من السَّرق إلا اسمه، فإن تجاوزه حصل على ظاهره، ووقف عند أوائله؛ فإن استثبت فيه، وكشف عنه، وجد عاريًا عن معرفة واضحة، فضلاً عن غامضة، وبعيدًا من جليّه، قبل الوصول إلى مُشكله، وهذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير، والعالم المبرِّز، وليس كل من تعرض

له أدركه، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله، ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علمًا برتبه ومنازله). الوساطة: ص١٨٣

يأتي هذا القول في مقدمة موضوع "السرقات الشعرية"، أي قبل أن يشرع القاضي الجرجاني في سرد أقسام "السرقات الشعرية" وأصنافها، ويبدو أن لتلك المقدمة ذات النبرة القوية الواثقة مبرراتها المتمثلة في وجود عدد من الكتب التي تخصصت في تناول موضوع سرقات المتنبي، ومن أشهرها كتاب "المنصف" لابن وكيع التنيسي، وكذلك يوحي هذا الأسلوب بأن حديث القاضي الجرجاني عن السرقات الشعرية وهو بصدد دفاعه عن المتنبي لم يكن اعتذارًا عن المتنبي قدر ما كان انتصارًا له، ومن ثم فإن هذه القوة في مخاطبة الآخر ترتبط بالغاية التأثيرية للخطاب، حيث تدفع المتلقي إلى قبول ما سوف يأتي لاحقًا من آراء مؤلف الخطاب.

من الجدير بالملاحظة أن القاضي الجرجاني عندما أباح للمخاطب المعارض أن يضيف من عنده زيادات من الشعر لم يعثر هو بها، فقد اشترط عليه ما قيّد تلك الإباحة بقوله: (فلا بأس أن تلحق به ما أصبته، وأن تضيف إليه ما وجدته، بعد أن تتجنب الحيف، وتتنكب الجور، وتعلم أن وراءك من النقاد من يعتبر عليك نقدك، ومن لا يستسلم للعصبية استسلامك). الوساطة: ص٤١١

يضع هذا النص المخاطب في مقام أدنى من مقام مؤلف الخطاب، كونه في حاجة إلى التوجيه من أجل أن يسلك طريق العدل ويتجنب الظلم والاستسلام للعصبية، كما يؤطر هذا التوجيه أسلوب التحذير الذي يمنح مؤلف الخطاب سلطة معنوية تدعم موقفه وآراءه المطروحة، وتدفع بالمخاطب نحو التسليم والإذعان لمطالب مؤلف الخطاب، تلك المطالب التي تحوز قيمتها الإقناعية من ناحية ما لمؤلف الخطاب من علم، وما يتصف به من صفات العدل والصدق والإنصاف، وما يتميز به من نظر ثاقب وقدرة على التمييز بين جيد القول ورديئه، ويعد ذلك كله حجة داعمة للرأي تهدف في الوقت نفسه إلى الانتقاص من علم الآخر المعارض الذي وُصف بأنه لا يستطيع التمييز بين الجيد والرديء من القول، فضلاً عن تعصبه لهذا الرديء، ولهذا يقول القاضي الجرجاني مخاطباً الآخر المعارض: (ومتى وجدتك تحتمل للفرزدق قوله:

وما مثله في الناس إلا مملكًا أبو أمه حيٌّ أبوه يُقاربُه

وقوله:

ما بالمدينة دارٌ غيرُ واحدةٍ دار الخليفة إلا دار مرْوانا

وقوله:

فإن التي ضرَّتْك لو ذقت طعْمَها عليك من الأعباء يوم التخاصم

وأشباهها. وإن لم تحتمله لم تتعمده بالعيب، ولم تتناول قلائده بالغض، ولا تسلك بأبي الطيب هذا المسلك، وتحمله على هذا المنهج علمت أنك متعصب مائل، ومتحامل جائر). الوساطة: ص٤١٦

لم يكتف القاضي الجرجاني بالإشارة إلى التناقض في مسلك الآخر، وفي أحكامه النقدية، بل أورد ما يثبت خطأ تلك الأحكام، وهي الصفات السلبية التي أسندت إلى الآخر بناء على موقفه المتحيز لشاعر دون شاعر، إذ وصف بأنه "متعصب مائل ومتحامل جائر"، وبهذا التمثيل السلبي للآخر دعم القاضي الجرجاني غرضه الحجاجي، فكشف عن خطأ الآخر المعارض، ونبه على صفاته السلبية التي أدت به إلى الجور في الحكم النقدي.

٨ - **الأسلوب:**

وظف القاضي الجرجاني بعض صور الأسلوب من أجل تحقيق المقصد الإقناعي لخطابه، فاستخدم من الأساليب ما له قوة فعالة قادرة على مد الخطاب بطاقة إقناعية، مثل أسلوب الشرط الذي يعد (من أكثر الأساليب قدرة على بث شحنات عاطفية عبر رسالة فكرية، يحاول فيها المرسل حمل المخاطب على التسليم بحجته وبرهانه)[٢٦]، وفضلاً عن كونه أداة تدعو إلى إعمال العقل، فإنه أيضًا يتواءم مع طابع الخطاب الحواري حيث يتحول المخاطب المعارض إلى مشارك يحاور ويجادل ويسهم في تشكيل قضايا

الخطاب، لهذا فأسلوب الشرط كان من أكثر الأساليب حضورًا في خطاب الوساطة، وتنوعًا في كيفيات استخدامه، فقد يرد عن طريق تكرار صيغة القول في فعل الشرط وجوابه، كما في الأمثلة التالية:

(فإن قلتَ.... قلت...) الوساطة: ص١٦، (فإن قلتَ... قلتُ لك...) الوساطة: ص١٧

(فإن قلتَ... قلنا لك..) الوساطة: ص٥٣، (فإن قلتَ... قلنا..) الوساطة: ص٥٣

(فإن قالوا... قلنا..) الوساطة: ص٤٢٦، وقد يرد فعل القول في فعل الشرط فقط مثل:

(فإن قلتَ... فأنشد له..) الوساطة ص٢٧، (ولو قال قائل... لوجب أن يكون...) الوساطة: ص٨٠، إلا أن الأكثر تواتراً في استخدام أسلوب الشرط ما يعتمد على جهد المخاطب في الوصول إلى المعرفة الصحيحة، إذ يأتي جواب الشرط معلقًا بفعل يقوم به المعترض كما في الأمثلة التالية:

(ولو تأملتَ... لعظمت من..) الوساطة: ص٥٥، (ولو تصفحت شعره... لوجدت فيه..) الوساطة: ص٩٧، (إذا قست... تبينت الفاضل من المفضول) الوساطة: ص١٢٢.

(ومتى طالعت... عرفت..) الوساطة: ص٢٠٩

وقد يأتي فعل الشرط مستندًا إلى قيمة الإنصاف الذي يشترطه مؤلف الخطاب في المخاطب المعترض، مثال ذلك:

(فإن أنصفت فلك فيهما عبرة ومقنع) الوساطة: ص٨٢، (فإذا أنصفت عرفت فضله) الوساطة: ص١٨٩، (ومتى أنصفت علمت..) الوساطة: ص٢١٤.

كذلك يوظف القاضي الجرجاني أسلوب الاستفهام بشكل واضح كونه من الأساليب ذات البعد الحجاجي لأنه (قد يهدف أحيانًا إلى حمل من وجه إليه الاستفهام على إبداء موافقته – إذا أجاب – على ما جاء الاستفهام يقتضيه)[٢٧].

ومن ثم يمكن النظر إلى أسلوب الاستفهام في خطاب الوساطة بوصفه آلية إقناعية تستدعي حضور المخاطب المعترض، وحصاره بالتساؤلات التي تحمله على الموافقة والقبول، كما في الأمثلة التالية:

(هل تجد فيها قصيدة تسلم من...) الوساطة: ص٤، (هل تجد معنى مبتذلاً) الوساطة: ص٢٧، (هل خلص لك شعر أحدهم من شائبة) الوساطة: ص٥٣، (فهل طمست معايبه محاسنه؟ وهل نقص رديّه من قدر جيده؟ وهل ضر قوله...) الوساطة: ص٥٥

من الملاحظ أن تلك الجمل المصدرة بالأداة (هل) قد أخرجت الاستفهام عن غرضه الأصلي إلى غرض بلاغي هو الإنكار، وقد

استخدم القاضي الجرجاني الأداة الاستفهامية (كيف) لتحقيق غرض التعجب، كما في قوله:

(وكيف أسقطته عن طبقات الفحول وأخرجته من ديوان المحسنين لهذه الأبيات التي أنكرتها ولم تسلم له قصب السبق ونصال النضال، وتعنون باسمه صحيفة الاختيار لقوله:

هو الجَد حتى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

الوساطة: ص١٠١

شكّل الاستفهام البلاغي حجة على المعنى الذي قصد القاضي الجرجاني إثباته وهو تميز المتنبي، وأنه ينتمي لطبقات الفحول من الشعراء، والتأكيد على أن أبياتًا يسيرة ينكرها المعترض على شعره لا تستوجب إخراجه من ديوان المحسنين، وقد عزز القاضي الجرجاني قوة الاستفهام الإقناعية عندما أورد عددًا غير يسير من الشواهد الشعرية الدالة على براعة المتنبي، وبطبيعة الحال تحقق كثرة الشواهد الشعرية وظيفة حجاجية، فهي تثبت للمعترض على شعر المتنبي غفلته عن النظر إلى نصوص أخرى، وتدعوه إلى إمعان النظر والتثبت والإنصاف في الحكم.

الخاتـــــــمة

لم تكن غاية الدراسة من مقاربة كتاب الوساطة مناقشة ما احتواه الخطاب من قضايا بلاغية وأحكام نقدية، وإنما التعرف على الركائز التي دعمت تلك القضايا والأحكام، في إطار وساطة مؤلف الخطاب بين المتنبي وخصومه، ولقد أثبتت الدراسة فاعليـــة تلـــك الركـــائز بوصفها آليات إقناعية أسهمت عبر تفاعلها مع بعضها البعض فـــي تشكيل خطاب حجاجي. هذا الخطاب الذي لم تحدد حجاجيته آليـــات الإقناع فحسب، وإنما أكدها أيضًا دور المتلقي الجدلي المشارك فـــي تشكيل الأحكام النقدية، وذلـــك مـــن خـــلال اســـتراتيجية الخطـــاب التواصلية التي أضفت على الخطاب قوته التأثيرية ومصداقيته.

وقد كشفت مقاربة الآليات الحجاجية في كتاب الوســـاطة عـــن النتائج التالية:

١- تنوع آليات الإقناع ما بين القيم الإيجابية، والأقيسة العقليـــة المنطقية، والترتيب المخصوص لموضوعات الكتـــاب وفـــق بنيـــة استدلالية، والطابع الحواري، والشاهد القرآني، والنصوص الخبرية، والتمثيل الإيجابي للذات، والتمثيل السلبي للآخر، والتوظيف البلاغي لبعض الأساليب، وذلك مما يثبت إمكانية النظر إلى كتاب الوســـاطة بوصفه خطابًا تواصليًا يفترض وعي المتلقي بسياق إنشاء الخطاب، كما يفترض التفاعل المثمر والمتبادل بين المخاطِـــب والمخاطَـــب،

وهذه الرؤية تفتح المجال لقراءة جديدة للخطابات البلاغية والنقدية، قراءة منفتحة على الثقافي والجمالي، وتمد جسور التواصل بين الماضي والحاضر.

٢- استند خطاب الوساطة في تحقيق غايته التأثيرية إلى منظومة القيم الإيجابية التي تحظى بالقبول والإجماع، حيث اتخذ القاضي الجرجاني من قيم التنافس المحمود والعلم والحق والعدل خلفية معرفية حجاجية يتأسس عليها الرأي، لأنها من القيم المسلم بها في المجتمع العربي الإسلامي، كما أنها لكونها قيمًا أصيلة فقد أظهرت مؤلف الخطاب بمظهر الخبير المحنك الجدير بالوقوف موقف الحاكم المسدد، وبذلك لم يكن عرض القيم الإيجابية منفصلاً عن الغرض الحجاجي للخطاب.

٣- حمل القياس العقلي في كتاب الوساطة قوة حجاجية لأنه استند إلى مقدمات منطقية مسلم بها تقوم مقام الدليل على صحة آراء المؤلف في شعر المتنبي، وقد تمثلت فاعليتها الحجاجية في استدعاء الرصيد الثقافي للمخاطب، من أجل إشراكه في إثبات آراء مؤلف الكتاب، وذلك مما يستتبع إبطال آراء الخصوم، وإذعانهم للحجاج.

٤- بلورت البنية الاستدلالية التي شكلت خطاب الوساطة خصوصيته الحجاجية، بدءًا من إعلان الغرض من تأليف الكتاب كما ورد في المقدمة، ومرورًا بترتيب الموضوعات ترتيبًا ذا بعد إقناعي

حيث التدرج في عرض الرأي، وانتهاء بالجزء الذي عنوانه "دفاع المؤلف عن أبي الطيب"، وفيه يدرك المخاطب أن موضوعات الكتاب براهين عقلية تدعم آراء المؤلف، وتمهد إلى قبول الأحكام كما وردت في الخاتمة.

٥- شكل الأسلوب الحواري في كتاب الوساطة آلية حجاجية تهدف إلى تحقيق غاية تأثيرية ومقصد تداولي، وقد أظهرت العبارات التي توجه بها القاضي الجرجاني إلى المخاطب المعارض أو المؤيد عن مهارته وقدرته على استمالة المخاطب، إذ لم يكن حواره من موقع التعالي والاستبداد بالرأي، وإنما عمد عند عرض الآراء المعارضة إلى تلمس الإقناع بما فيها من أخطاء باستخدام سبل المنطق والنظر العقلي، ولهذه الاستراتيجية الحجاجية أسبابها التي يمكن ردها إلى سياق التفاعل بين المخاطِب والمخاطَب في إطار مراعاة ثقافة الاختلاف.

٦- عززت حجة الشاهد القرآني المنحى الإقناعي في خطاب الوساطة بوصفها حجة دامغة تحظى بالثقة واليقين، فكانت بناء على ذلك عاملاً محفزًا للمخاطَب على التفكير والتدبر واختيار الصائب من الآراء، وعونًا لمؤلف الكتاب على التأثير والإقناع لاستناده إلى مرجعية صادقة.

٧- اكتسبت النصوص الخبرية التي أفاد منها القاضي الجرجاني حجاجيتها ومصداقيتها من أمور مهمة مثل: السماع من أهل الأدب، والأخذ عن أهل العلم، والاهتمام بالسند، مما أسهم في تأكيد البعد الحجاجي للنصوص الخبرية، وجعل منها قطبًا مركزيًا ينسجم حضوره مع المقاصد التي يتوجه بها مؤلف الخطاب إلى المتلقي.

٨- غلب على خطاب الوساطة استخدام استراتيجية التمثيل الإيجابي للذات، والتمثيل السلبي للآخر، وهذه الاستراتيجية الحجاجية تستند إلى خطة إقناعية تهدف إلى الإعلاء من مقام مؤلف الخطاب بوصفه حكمًا بين فريقين، وقد اتضحت مهارة القاضي الجرجاني في تمثيل الذات عندما عرض صورته في عيون الآخرين، ليؤكد بذلك موضوعيته وحياديته في عرض الآراء، وكذلك أسهم التمثيل السلبي للآخر في الكشف عن خطأ الآخر المعارض، ونبه على صفاته السلبية التي جعلته يحيد عن الحق.

٩- مثّل الأسلوب في كتاب الوساطة أحد الروافد التي أسهمت في تشكيل الهوية الحجاجية للخطاب، وقد كان أسلوب الشرط من أكثر الأساليب التي اعتمدها القاضي الجرجاني لتناسبه والغايات الحجاجية، فهو أسلوب يدعو إلى التفكير وإعمال العقل، وكذلك وظف القاضي الجرجاني أسلوب الاستفهام البلاغي في إثبات الرأي وتأكيده، فهذا الأسلوب يعمل على تقريب وجهات النظر بين المتكلم

والمخاطب مما يعطي الخطاب قدرة توصيلية تسهم في تحقيق المقصد الإقناعي للخطاب.

تبين مما سبق عرضه أن آليات الإقناع التي استخدمها القاضي الجرجاني في كتاب الوساطة قد كشفت عن رؤية معرفية ترتكز على ما لدى المتلقي من خلفية معرفية من جهة، وتؤكد تفاعله مع هذه الآليات الإقناعية من جهة أخرى، مما يعني قدرة مؤلف الكتاب على تأسيس آليات حجاجية على أسس معرفية تسهم في قبول القول الحجاجي.

الهوامـــــش

١- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علـــي بـــن عبـــد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح: محمـــد أبـــو الفضـــل إبـــراهيم وعلـــي محمـــد البجـــاوي (ط منشـــورات المكتبـــة العصـــرية، بيروت، د ت)، ص٤١٦.

٢- التداولية والحجاج مـــداخل ونصـــوص، صـــابر الحباشـــة (صفحات للدراســـات والنشـــر، دمشـــق، ســـوريا، ط١؛ ٢٠٠٨م)، ص١٥.

٣- الخطابة، الترجمـــة العربيـــة القديمـــة، أرســـطو، تحقيـــق وتعليق: د. عبـــد الـــرحمن بـــدوي (ط وزارة الثقافـــة والإرشـــاد القومي، ١٩٥٩م)، ص٩. وعـــن ترجمـــة مصـــطلح "الريطوريـــة" Rhetorique عند العرب انظر: البلاغـــة الجديـــدة بـــين التخييـــل والتداول، محمد العمـــري (ط أفريقيـــا الشـــرق، الـــدار البيضـــاء، ٢٠٠٥م)، ص١٣، واللغة والخطـــاب، عمـــر أوكـــان (ط أفريقيـــا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠١م)، ص١٠٠.

٤- مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، محمد الولي، (مجلة عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون، مج ٤٠، ع٢، الكويت، ٢٠١١م)، ص٣٣.

٥- البلاغة والأدب: من صور اللغة إلى صور الخطاب، محمد مشبال (دار العين للنشر، القاهرة، ط١؛ ٢٠١٠م)، ص١٧.

٦- البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليث، ترجمة: محمد العمري (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩٩م)، ص٢٤.

٧- عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٦م)، ص١٢٦.

٨- بلاغة النص التراثي مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف: محمد مشبال (دار العين للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م)، ص٩.

٩- سورة البقرة، آية ٢١٦.

١٠- حوارات من أجل المستقبل، طه عبد الرحمن (منشورات الزمن، ع١٣، الرباط، ٢٠٠٠م)، ص٤٨.

١١-بلاغة النص التراثي مقاربات بلاغيـــة حجاجيـــة، إشـــراف محمد مشبال، ص٩ (من المقدمة).

١٢-مقدمة في نظريات الخطاب، ديان مكدونيل، ترجمة وتقديم: عز الدين إسماعيل (المكتبة الأكاديميـــة، القـــاهرة، ط١، ٢٠٠١م)، ص٢٩ (من المقدمة).

١٣-إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: عماد الدين أحمـــد حيدر (مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط٤، ١٩٩٧)، ص١٨٥.

١٤-الشعرية، تودوروف، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بـــن سلامة (دار توبقال، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٠م) ص٧٨.

١٥-الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصـــنف فـــي الحجاج - الخطابة الجديدة" لبرلمـــان وتيتكـــاه، عبـــد الله صـــولة، ص٣١٦، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليـــد الغربيـــة مـــن أرسطو إلى الآن (كلية الآداب، منوبة، تونس، ١٩٩٨م).

١٦-عندما نتواصل نغير، عبد السلام عشير، ص١٢٩.

١٧- Thomas O. Sloane, Encyclopedia of Rhetoric Oxford University Press, 2001, Part 1, p.172.

١٨-بلاغة النص التراثي: مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف: محمد مشبال، ص٨ (من المقدمة).

١٩-معالجة إشكالية القديم والجديد في "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، علي البطل، ص٧٠٧، ضمن: قراءة جديدة لتراثنا النقدي (ط كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة، المجلد الآخر، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

٢٠- يتيمة الدهر، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: مفيد محمد قميحة (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ج٤، ص٤، ٥.

٢١-بلاغة الانتصار في النقد العربي القديم، حمادي صمود (دار المعرفة للنشر، تونس، ٢٠٠٦م)، ص٧١.

٢٢-البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد (دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م) ص١٠٦.

٢٣-المكون الحجاجي في الخبر، حنان المدراعي، ص١٧٣، ضمن: بلاغة النص التراثي، مقاربات بلاغية حجاجية.

٢٤-تحليل الخطاب السياسي، نموذج إرشادي، عماد عبد اللطيف، ص٣٩، ضمن: بلاغة النص التراثي مقاربات بلاغية حجاجية.

٢٥-بلاغة النص التراثي مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف: محمد مشبال، ص٩ (من المقدمة).

٢٦-بلاغة الحجاج في الشعر القديم: حجاج الشاعر شفيعًا ومحرضًا، محمد سيد علي عبد العال (مكتبة الآداب، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م)، ص٣٩.

٢٧-الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتكاه، عبد الله صولة، ص٣٢١.